الجنرال الأخير

« مجموعة قصصية »

جمال عبد الرحيم

الجنرال الأخير

" مجموعة قصصية "

اسم الكاتب: جمال عبدالرحيم
تدقيق لغوي: محمد أحمد عبدالغفار
تصميم الغلاف: عبير محمد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة الأولى: ٢٠١٧ م
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠١٧/١٥١٥٣

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – الحي السادس – مدينة السادس من أكتوبر
موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛
يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

الإهـــداء

إلى السائرين في طريق البحث عن الحقيقة

رغم الآلام التي تعتصر قلوبهم

إلى أصحاب تلك الذاكرة التي ترفض أن تنزف الوعي

إلى القارئ العزيز

أرجو أن تكون أحد هؤلاء

جمال عبد الرحيم

* * *

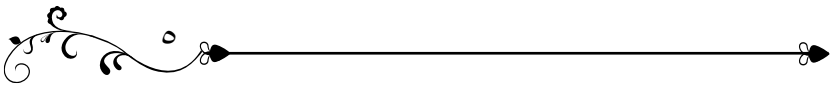

بترَ الوالي لساني
عندما غَنّيتُ شِعري
دونٍ أن أطلُب
ترخيصاً بترديد الأغاني

أحمد مطر

- ديوان أحمد مطر -

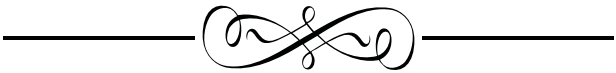

❋ ❋ ❋

(١)

الصمت

لم يترك حارس الشركة، نوبي الأصل، المقيم بالقاهرة منذ سنوات طويلة، لهجته النوبية وراء ظهره، بل ظلت متشبثة بلسانه حتى اللحظة الأخيرة التي فقد فيها النطق.

صوت صياحه المستمر كان علامة مميزة لذلك الشارع الهادئ، فجأة أصيب الرجل بالخرس، قبل أن يختفي تمامًا من المكان، تناقلت الألسن أنباء عودته إلى النوبة ليقضي أيامه الأخيرة في مسقط رأسه، والبعض الآخر يروي انتقاله إلى الإسكندرية لتلقِّي علاجه؛ حيث يقيم ابنه الطبيب هناك.

لم يلفت الأمر الانتباه، لكن بائع الخضراوات الصعيدي لحق بالرجل أيضًا، صوته الجهوري وهو يعلن أسعار بضاعته كان يرج المكان، لتوقظ النائم للّحاق بما يشتهي من خضراوات يوميًّا، فجأة اختفى الرجل هو الآخر، قبل أن يُشاهَد وهو يسير مطأطأ الرأس من دون حماره وعربته الخشبية، ولم يرد التحية حينما ألقيت عليه، بل تحركت شفتاه بلا صوت قبل أن تغرورق عيناه بالدموع.

ارتجَّ الشارع منذ أيام وتلك السيارات الفارهة تتوقف في تتابُع أمام باب البناية الضخمة في نهاية الشارع، ليهبط منها مجموعة من علية القوم لاصطحاب ذلك العجوز الثري الذي لا يذكر أحدنا اسمه، وزوجته تصطحبه في وجوم، عرفنا بعدها أن الرجل فقد النطق، لتتصل زوجته بأبنائه لنجدتها، وخلال ساعات حضر أبناؤه لاصطحابه، ولم يعد بعدها، لتنقطع أخباره تمامًا.

بات الوضع مأساويًّا ولا يمكن احتماله، خاصة بعد إغلاق المدرسة الثانوية للبنات، الواقعة في الشارع الموازي، بعد أن تفشَّى وباء الخرس بين الفتيات، ما أصاب الجميع بالرعب، فامتنع الآباء عن إرسال فتياتهم للدراسة حتى يتم التحقق من أسباب ذلك الداء.

يومًا بعد يوم، يتحوَّل الشارع إلى صحراء جرداء أصابها إعصار من جفاف ليتساقط سكانه كباقي الشوارع القريبة في بؤرة الخرس، لتنتشر الشائعات بأن تلك الغازات التي انبعثت منذ مدة طويلة من أحد المصانع القريبة هي السبب المباشر لذلك الوباء.

حاولتُ التحقق من الموضوع، خاصة بعد أن تم إغلاق المصنع وهروب مالكه، رجل الأعمال الشهير، قبل أن يتم الإعلان عن تهرب ذلك المالك من الضرائب وتوالي أحكام السجن والغرامة ضده ليهرب إلى الخارج، ويعلن المصنع غلق أبوابه ليتم عرضه للبيع بالمزاد العلني، فلا يتقدَّم أحد للشراء، على الرغم من إثبات براءة المصنع من التسبب في تلك المأساة.

شهور مرت منذ الإصابة الأولى التي كانت من نصيب العجوز النوبي،

ليجتاح الوباء الجميع بلا رحمة، يصاب أحدهم بالخرس، فتتدهور حالته النفسية بلا تشخيص واضح أو علاج معروف ليلقى حتفه بعد فترة.

أعيد قراءة ما كتبت محاولًا تحريك شفتيَّ بالكلمات، فتتحركان بلا صوت، منذ أيام مضت لحقت بمن سبقني بذلك الوباء، أحاول النطق أو على الأقل إقناع نفسي بأنها حالة مؤقتة وستزول حتمًا.

لكن الشواهد كلها من حولي تقتل ذلك الأمل بلا رحمة، سأستمر بالكتابة، لأعيد قراءة ما كتبت، فقط لكي لا أستسلم لليأس، أو ألجأ – والعياذ بالله – للانتحار، كما لجأ إليه ذلك الطبيب الشاب، سأظل أكتب كي أتناسى ما يحيط بي أكثر وأكثر يومًا بعد يوم.

ليحاول أحدكم قراءة ما أكتب بصوت مرتفع، لم أستمع لصوت منذ أيام، سوى ذلك الصوت الصادر من خلال تلفازي القديم، هؤلاء الثرثارون من المسئولين، الذين تعلو صدورهم النياشين، وخطبهم النارية الرنانة بأن ما يحدث ليس سوى نتاج حروب الجيل السادس من أعداء الوطن، يجول بخاطري سؤال حائر: لماذا لم يُصَب أحد هؤلاء بداء الصمت؟

شبح الخيانة يلتف أمام ناظري بأجسادهم ليكسوها كعباءة شيطانية تحاول، في يأس، ستر عوراتهم من دون جدوى.

ذلك الشاب يتجوَّل بهدوء فوق سطح المبنى المقابل، يقترب من سور المبنى، يداه ترتفعان نحو السماء في دعاء مكتوم، ربما يحاول الصراخ بلا جدوى، أستطيع أن أرى تلك الدموع التي سالت فوق وجنتيه كشلال يمتطي منحدرًا أبديًّا.

ينظر الشاب نحو الأسفل للمرة الأخيرة، قبل أن يقفز، جسده يسبح في الهواء قليلًا قبل أن يرتطم بالأرض بصوت مكتوم، ليتجمع المارَّة من حوله، قبل أن يتم حمله بلا صوت، ليختفي الجمع بعد قليل عن الأنظار.

أشعر بالإرهاق، سأتجه إلى فراشي لنيل قسط من الراحة، فغدًا يوم آخر.

جميلة هي، تبتسم صباحاً، فتشرق الشمس،
وتضحك ليلاً، فيتألق ضوء القمر،
نقية كقطرة مطر لم تصل للأرض،
تعاني كمقاتل أسير، كمخاض مريم العسير.

جمال عبد الرحيم

(٢)

نعمـــة

ليلة شتوية باردة، تتسبب في تجميد أطرافه رغمًا عنه، يتثاءب بقوة ويداه تتشابكان وتنثنيان إلى الخلف، قبل أن تصدر أصابعه ذلك الصوت المعتاد في تناغم، يفرك عينيه براحتي يديه مقاومًا النعاس، ينبعث صوت ساعة المكتب مُصدرًا رنينه المزعج قبل أن يعاجله بكف يده محاولًا قتل ذلك الصوت البشع.

عقارب الساعة تشير إلى الرابعة فجرًا، وصوت الأذان يأتي من المسجد القريب، لينهض الآن بسرعة قبل أن يُعيد النعاس تلك الهجمة المرتدة على جفونه، ربما نجح فيها تلك المرة ليفوته القطار كما حدث من قبل.

يتدفق ماء الصنبور البارد كمادة كاوية تخترق عظامه، يبلل كفيه بالماء ليمسح وجهه، لتصرخ خلاياه معلنة سخطها من برودة الطقس البشعة.

تلك الغرفة المطلة على الأراضي الزراعية المنبسطة على مرمى البصر هي ملاذه، منذ أن تسلَّم عمله بتلك الوحدة الصحية البائسة قبل شهرين كاملين، اعتاد على مغادرة عمله في ذلك التوقيت أسبوعيًّا؛ لينعم بيومين كاملين بعيدًا عن رتابة العمل، بتلك القرية التي أصابته بالضجر، وسيلته الوحيدة ذلك القطار الذي يتوقَّف بمحطة القرية قبل شروق الشمس.

دقات باب غرفته المفاجئة جعلت جسده يرتعد بقوة، يتجه نحو الباب متسائلًا عن الطارق في ذلك التوقيت!! ليأتيه صوت أنثوي واهن لم يتبين

ألفاظه تمامًا، ليفتح باب غرفته بحذر.

يرتد إلى الخلف رغمًا عنه وهو يحدِّق في ذلك الوجه الملائكي الذي ينظر نحوه من أسفل البرقع الشفاف، لا يذكر أنه شاهد جمالًا كهذا من قبل.. عينان سوداوان يحيط بهما بياض مشوب بزرقة، كجزيرة بكر تتوسط موج البحر، وشعر كسواد الليل الحالك تطايرت خصلة واحدة منه.

- أشكو من سخونة شديدة.

يأتي صوتها الواهن كأنشودة بلبل يترنم وحيدًا وسط غابة صامتة، ليفيق من شروده قليلًا، ليحاول أن يمد يده نحوها للكشف عن مدى تلك السخونة، لتتراجع إلى الخلف فجأة، ووجهها يتورَّد بحمرة الخجل، ليعيد يده إلى جواره، قبل أن يتجه ناحية درج مكتبه، وهو يلقي نظرة على تلك الساعة القابعة فوق مكتبه وعقاربها تلتهم الوقت بلا رحمة، ليُخرج شريطًا من الأقراص مع صوت متلعثم:

- قرصان دفعة واحدة من ذلك الشريط سيفيان بالغرض، لكن تجب مراجعة المستشفى في المدينة للكشف عن الحالة أكثر.

يدها تلتقط الأقراص وهي تهم بالمغادرة، ليستوقفها سؤاله المباغت:

- ما اسمك؟

تستدير نحوه لتمنحه ابتسامة لن ينساها لبقية حياته، وهي تقول:

- نعمة، بنت الشيخ رضوان.

تغادر الغرفة مُغلقة الباب خلفها، وملامحها ما زالت محفورة بمخيلته، وقد كفت أهدابه عن الحركة مخافة أن تُسقط شيئًا من تلك الملامح الملائكية.

ترتسم ابتسامة فوق ملامحه، قبل أن يغادر الغرفة بدوره حاملًا حقيبته، وهو يسرع الخُطى للحاق بموعد قطاره المرتقَب، أمام باب المسجد يتوقَّف قليلًا وتلك الجنازة تخرج محمولة على الأعناق، والصمت المطبق يعلن هيمنته على الجميع، ليتمهَّل قليلًا، حتى يتوقف تمامًا.

تمر مقدمة الجنازة من أمامه حتى يصل ذلك النعش، ليتوقف أمامه تمامًا للحظات، بدت كدهر كامل، وكأنه يلقي نظرة الوداع، قبل أن يكمل المسير في طريقه لمثواه الأخير.

يمر أمامه عامل الوحدة الصحية، ليجذبه من ذراعه بهدوء، متسائلًا عن ذلك المتوفَّى؟

ليأتي صوت العامل وهو يهز رأسه في أسف قائلًا:

- نعمة، بنت الشيخ رضوان، أصيبت بحمى منذ أيام وكانت بمستشفى الحميات، قبل أن تنتقل إلى رحمة الله بعد صلاة العشاء أمس.

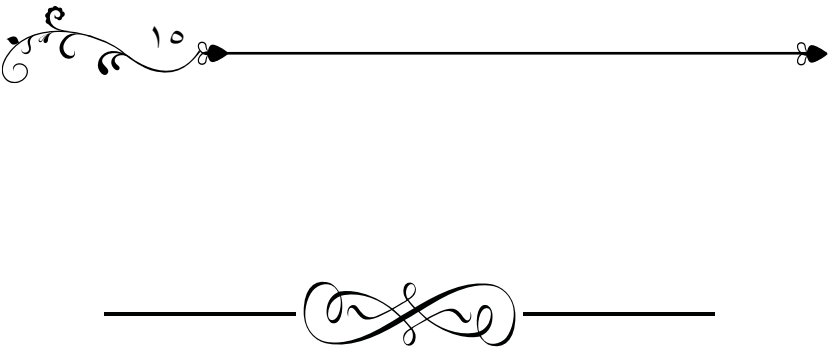

"قد تغفر لك المرأة القسوة والظلم،
لكنها لا تغفر لك عدم الاهتمام بها."

· جان جاك روسو ·

(٣)

اغتيال عشق

بخطوات متعثرة، قطعَتْ تلك الأمتار لتعبر الشارع إلى الطرف المقابل، وصلَتْ إلى الرصيف وسارت ببطء، العودة إلى الخلف تداعب خيالها، كهروب من مجهول لا تدري كنهه، هدوء حذر لا يقطعه سوى صوت أوراق الشجر الجافة وهي تُسحَق تحت قدميها، شعرت بالخدر يسري في أطرافها على الرغم من دقات قلبها التي باتت مسموعة، كدقات إعلان الحرب في غابة موحشة، كالمنوَّمة مغناطيسيًّا تسير للأمام رغمًا عنها، وهي ترى مصيرها كحبل مشنقة ماثل أمامها كقدر محتوم، تراءت أمامها خيالات لماضٍ بعيد للقاء جمعها مع مَن قتل مشاعرها من قبلُ، كان اللقاء في المكان نفسه، ولكن لم تكن أوراق الخريف تُسحق كما هي اليوم، ربما لم تنتبه وقتها للأوراق وهي تلفظ أنفاس عشقها ببطء.

ما زال عطره يسكنها منذ ذلك الوقت، على الرغم من أنه أخل بوعده لها بأن يبقى للأبد، وغادر كخيال بدَّده غيابُ أشعة الشمس، وتركها فريسة لوحشة تسحبها لقاع سحيق في بحر الأحزان، تصارع من أجل كتمان ذلك

الحريق المستعر في أعماقها مشعلًا كيانها كله، كانت تحاول الابتسام، لكنها أبدًا لم تنجح يومًا، حاولت أن تعود يومًا تلك الفراشة التي تداعب الحياة، لكن أشلاء ذلك العشق المحترق تأبى إلا أن تصير كرماد تذروه الرياح، ليجد مكانه في عينيها، تسيل على أثره تلك الدموع الحارة لتحرق وجنتيها، صانعة ذلك الأخدود كطريق شقه بركان ملتهب رغمًا عنه.

لكنه اليوم عاد..

لم تصدق أذنيها عندما سمعت صوته في الهاتف، يدعوها أن تعيد الكرّة مرة أخرى، مطلقًا تلك الوعود التي كانت أسيرة في أرض مجهولة منذ زمن، نسيت في تلك اللحظة كل مآسيها التي لعب دور بطولتها المطلقة خلال تلك السنوات العجاف.

هل تصفح عنه بعد أن تحوَّلَتْ إلى أشلاء إنسان بسببه؟!

تعثرت خطواتها حينما لمحته من بعيد وقد تناثرت خيوط اللؤلؤ الأبيض لتكسو شعره بالشيب، هي أيضًا نالت حظها من خيوط اللؤلؤ، لكنها لم تجد وقتها قلبًا يخفق من أجلها، مواسيًا إياها ولو بمجرد كلمة، حاولت أن تضمد ذلك الجرح الذي ما زال ينزف وهي تتطلع إليه من بعيد، تشعر الآن بقدميها تعجزان عن حملها، وهي تناضل من أجل الوصول إليه، تتناسى ذلك وتمضي نحوه وسؤالها يتردد كصدى صوت في وادي الموت من دون أن يجد إجابة: هل حقًّا ستعود؟!

لمحته يتحدث عبر الهاتف وتلك الابتسامة التي عشقتها فيما مضى تتألق، تمامًا كما كانت في الأيام الخالية، عجزت عيناها عن التصديق، وخفقات قلبها

ترتفع ونوبة من الغثيان تبدأ في اجتياحها بلا رحمة، هو يبتسم إذًا!!

منذ ذلك اليوم الذي فارقها فيه بلا سابق إنذار، ذابت ابتسامتها كشموع تحترق في قلب الجحيم، لم تلامس شفتيها تلك الكلماتُ السحرية عن العشق، وأغلقت الطريق إلى أذنيها بآلاف الحواجز كي لا تتسلل همسات إليها، ولم تلمع عيناها فرحًا كما اعتادت من قبلُ، أصبحت والسعادة ضدين لا يجتمعان، مثل الحريق والمطر.

تسمَّرت مكانها وهي تتابع ابتسامته من بعيد، تصارع بداخلها تلك الرغبة في العودة للماضي لعلّها تظفر بلحظة من ذلك العشق الذي تم اغتياله يومًا، تئنُّ كحنين طفل للمسة حانية من أم رحلت ولن تعود، ترتجف كأعزل تجرَّد من سلاحه، ينتظر ذلك الوحش في حلبة رومانية، تترقرق تلك الدموع في عينيها كنيران مستعرة تجتاز حاجزها لتعبر إلى ذلك الأخدود الذي حُفر فوق وجنتيها من قبل.

بهدوء، تستدير إلى الخلف، لقد حزمت أمرها، لتسدد الطعنة الأخيرة بيدها لذلك القلب الراقص بين ضلوعها كطير ذبيح، كرصاصة الرحمة التي طال انتظارها تخطو أولى خطواتها إلى الاتجاه المعاكس، لن تعود؛ فهو لا يستحق.

تتسمَّر قدماها وكأنها تعلن التمرد والعصيان، أم تراه قلبها ذلك البائس أبى أن يحتكم لعقلها، استدارت بهدوء وهي تتطلع نحوه، ودقات قلبها ترتفع كطبول الحرب، اقتربت منه أكثر، تتوارى لهفتها خلف سحب التوتر التي تعصف بكيانها كله، تتعثر في خطواتها حد السقوط مغشيا عليها، ابتسامته المشرقة تزيل ما علق بروحها لسنوات من ألم، وتمحو ما ران على قلبها من عذاب، بريق عينيه المحبب لروحها يتألق من جديد، وترقرق الدموع بين مآقيه

يعلن إقراره بالذنب ورجاء المغفرة، يده الممدودة تتلقف يدها بلهفة ليطبع على راحتها قبلة حلمت بها في السنوات العجاف.

ترتعد فرائصها وكفها ترقد بهدوء بين يديه، لا تجرؤ على سحب كفها خشية ايقاظها من حلمها الوردي، تسربت دموعها من خلف أسوارها رغماً عنها، لتشتد قبضة يده إمساكاً براحتها، وصوته المحبب لقلبها ينطق أخيراً: - سامحيني.

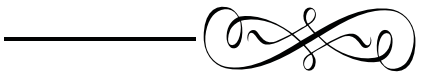

"ليست الثقافة دينا يوحد بين القلوب ويؤلّفها،
بل هي على الأرجح تُفرّقها؛ لأنها تُطلع
المظلومين على هول الظلم الذي يعانونه،
وتطلع المحظوظين على ما يمكن أن يفقدوه"

أحمد خالد توفيق

- يوتوبيا -

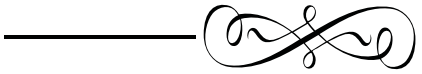

(٤)

انفصال

(القصة الحاصلة على المركز الأول
مسابقة أقلام تلمس الأحلام ٢٠١٦م))

بدا الجو ملبدًا بالغيوم في ذلك اليوم البارد من شهر يناير لعام ٢٠٢٢م والسيارة الصغيرة التي يقودها المهندس "محمد الجنوبي" تقطع شارع طريق النور بوسط العاصمة متجهة نحو ميدان الاستقلال، وفي نهاية الشارع فوجئ قائد السيارة بتلك الكتل الخرسانية التي تمنع المرور، فلم يجد بُدًّا من إيقاف السيارة على جانب الطريق والترجُّل منها سيرًا على الأقدام لاختراق أحد الشوارع الجانبية من أجل الوصول إلى الميدان، وهو يتمتم بسيل من اللعنات على تلك الجموع التي تسببت في إغلاقه منذ عام على الأقل وتسببت في شلل تام للحياة في وسط العاصمة.

وصلت إلى سمعه بعض العبارات التي تبثها مكبرات الصوت في وسط الميدان:

- لا بد من القضاء على هؤلاء الإرهابيين المتمركزين في الجنوب، لن تسمح بلادنا لأحد بالتحكم في مصيرها وليّ ذراع قادتنا.

أكمل «الجنوبي» سيله من عبارات السباب وطال السيل هذه المرة أسماء

القادة العظماء كما يُطلَق عليهم.. عاد بذاكرته إلى أربعة أعوام مضت. حين بدأت تلك المناوشات تحتدم.. في البداية، خرج بعض الإعلاميين مشككين في وطنية أهل الجنوب وأنهم خذلوا السيد القائد في الانتخابات الأخيرة ولم يحصل من أصواتهم سوى على النزر اليسير.. وعلى الرغم من علم الجميع بتزوير تلك الانتخابات كاملة فإن أعمال الشغب التي عبَّرت عن رفضها للقائد في الجنوب كانت ذات نبرة أعلى من كل الأصوات، حتى إن وكالات العالم أجمع تناولتها.. تلا ذلك إعلان النتائج النهائية التي فاز بها القائد بنسبة تفوق الـ٩٥%.

لم تجد الأمم المتحدة فرصة سانحة أكبر من تلك للإعلان أن الانتخابات تم تزويرها بالكامل وأنها لا تعترف بنتائجها، وهنا بدأت كرة الثلج تكبر رويدًا رويدًا؛ حيث قام السيد القائد بطرد جميع ممثلي الأمم المتحدة من البلاد وإعلان انسحاب دولة "بيجمان" من المنظمة.

بدأ الإعلام يتخذ الخطوات الأكثر قسوة نحو التصعيد باتهام أهل الجنوب بأنهم ليسوا من السكان الأصليين للبلاد، وأيَّده في ذلك المجلس الأكبر للحكم، تلا تلك الحملة بروز حملة شعبية لطرد أهل الجنوب من الشمال، متهمة إياهم بالسيطرة على رؤوس الأموال والشركات والمصانع الكبرى في البلاد.

لم يتخذ الجنوب موقف المدافع، بل بدأ هجومه أيضًا؛ حيث خرج أحد رجال الدين من الجنوب ليعلن، بالدليل، أصول القبائل الجنوبية وامتداد نسبها للسادة المؤسسين لدولة "بيجمان".

لم يكتفِ الجنوب بذلك، بل تم رفع صورة القائد من جميع المصالح الحكومية ووضع صورة القائد الجنوبي المنافس مكانها، وهو الذي دعا، بدوره، لعمل استفتاء شعبي على الانفصال الكامل الذي تم بالفعل، وجاءت

نتيجته موافقة بنسبة تجاوزت ٨٠% على الانفصال، وتم تنصيب القائد الجنوبي حاكمًا على أرض الجنوب التي جاوزت مساحتها نصف مساحة البلاد، اعتبر الشمال تلك الخطوات بمثابة إعلان عصيان، فتجهزت القوات الشمالية لإحدى الحملات العسكرية التي أُطلق عليها «فجر الشمال لإعادة الأمن في الجنوب»، كما قالوا، وعند بداية الحملة ظهرت الانشقاقات؛ حيث هرب الآلاف من أبناء الجنوب من القوات الشمالية الموحدة وأعلنوا تشكيل القوات الجنوبية الحرة. وتم نصب الرادارات في الجنوب، ما أعاق الحملة الشمالية وأجبر قادة الشمال على إلغائها.

تلفت "محمد الجنوبي" يمنة ويسرة وهو يخترق جموع البشر في قلب ميدان الاستقلال محاولًا الوصول إلى غايته في الطرف الآخر من الميدان، حيث موعد مقابلة العمل التي حظي بها أخيرًا.

- اسمعوا أيها الشماليون.. من رأى منكم جنوبيًّا في الميدان فدماؤه حلال حلال حلال.

شعر بالاشمئزاز والعبارات الممتزجة بالدماء والأشلاء تخترق أذنيه مغلفة بغطاء ديني، وذلك الكابوس المستمر منذ أربعة أعوام يرفض الانتهاء، وعلى الرغم من تجاوزه عامه الأربعين فإنه بدا مهرولًا وهو يحاول الانتهاء من عبور الميدان والوصول للناحية الأخرى.

تراءت له في تلك اللحظة صورة طفلته الصغيرة «مي»، التي تجاوزت عامها الرابع منذ أيام وترقد عند واحدة من جيرانهم الآن في انتظار عودته، تلك البائسة التي أصبحت يتيمة فجأة بعد موت والدتها منذ عام، بعد أن عجز عن توفير نفقات العلاج لأجلها.

مسح بكفِّه تلك الدموع الحارة التي سالت فوق وجنتيه رغمًا عنه وهو يردد تلك الآية القرآنية التي يشعر بأنها أنيسه الوحيد في مصابه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

وصل أخيرًا إلى مبتغاه في تلك العمارة السكنية الواقعة في طرف الميدان، صعد درجات السلم بسرعة، وأمام إحدى الشقق توقف أمام الباب المفتوح للحظات لالتقاط أنفاسه وتعديل هندامه، مستعدًّا لذلك اللقاء الأول منذ فترة طويلة في رحلة البحث عن عمل، السكرتيرة الحسناء تجلس وسط الغرفة وهي تتابع شاشة التلفاز التي تنقل الحدث من الميدان، انتصبت قامتها فور أن لمحته متسائلة عن ذلك الغريب القادم.

- المهندس محمد عبد السلام.

نطقها معرفًا نفسه لتومئ برأسها ملتقطة سماعة الهاتف لتتصل بمديرها في العمل، الذي وافق على المقابلة، لتصطحب المهندس "محمد" نحو إحدى الغرف الجانبية وتطرق الباب برفق ثم تفتحه ليعبر إلى الداخل مغلقة الباب خلفه.

في غرفة فسيحة، امتدت لستة أمتار على الأقل لتنتهي بأحد المكاتب الفخمة، جلس ذلك الأصلع البدين يتطلع لشاشة الحاسب الراقد فوق سطح المكتب بعينين نصف نائمتين وهو يشير له بالجلوس. التفاتة خفيفة بطرف عينه استطلع محمد بها المكان الذي ينم عن ثراء فاحش وميراث من الأعمال التي قامت بها تلك الشركة فيما مضى.

- مرحبًا.

نطقها البدين بتثاقل مع ابتسامة باهتة وهو يكمل:

- أنت أحد المتصلين بشأن العمل في فرعنا في دولة "بيروسا"، بالطبع لديك كل البيانات المطلوبة عن العمل هناك والراتب الشهري، بالإضافة إلى مواعيد العمل والإجازات السنوية، وما دمت قد حضرت فذلك يعني موافقتك على شروط العمل.

استشف "محمد" من لهجة الرجل أن العشرات قبله قد تقدموا لتلك الوظيفة وربما لم يظفر أحدهم حتى الآن، كادت ثقته تهتز في إمكانية الحصول على عمل، لكنه استجمع تلك الثقة التي تكاد تتبعثر حينما تذكر أنه لا أحد يمتلك مؤهلاته أو خبراته من الممكن أن يكون موجودًا الآن في الشمال، لينطلق معرفًا نفسه ويده تمتد بأحد الملفات للرجل الذي التقطه بالتثاقل السابق نفسه:

- اسمي "محمد عبد السلام"، حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية، عملت في الكثير من المشاريع العملاقة في طول "بيجمان" وعرضها ومديرًا لبعضها، وأمامك ملف به كل شهادات الخبرة التي توثق كلماتي.

أخذ البدين يقلِّب الأوراق بين يديه وهو يتفحصها بدقة، ثم تيبَّست يداه فوق تلك الورقة التي تحمل صورة الهوية الشخصية وهو يتساءل في بطء:

- ما اسمك؟

رد "محمد" بهدوء:

- دكتور مهندس "محمد عبد السلام".

لوَّح البدين بيده في الهواء بضجر وهو يعيد التساؤل:

- اسمك الرباعي.

تيقَّن محمد من هواجسه مما يرمي إليه الرجل فأجاب ببطء:

- "محمد عبد السلام محمد الجنوبي".

تطلَّع الرجل إلى بشرته السمراء وتفحصه من منبت شعره إلى أخمص قدميه وتساءل من دون أن يرفع بصره عنه:

- الجنوبي؟ من الجنوب؟

هز محمد رأسه وكأنه ينفي تلك التهمة البشعة التي تلاحقه:

-لا.. إنه مجرد اسم، لكنني في الأصل من العاصمة، ووالدي شارك في حرب...

- سنرى..

قاطعه بها البدين وهو يضغط زرًّا في أسفل مكتبه، متصلًا بالسكرتيرة التي تتابع الحوار كاملًا عبر مذياع خاص في مكتبها لتعرف الأمر المطلوب منها على الفور، فسارعت بالاتصال بالشرطة المتمركزة بالقرب من الميدان لتخبرهم بأن أحد الجنوبيين قابع في مكتب المدير الآن.

ما إن وصل الاتصال لرجال الشرطة حتى سارعت كوكبة منهم نحو العمارة السكنية.. في اللحظة نفسها، شعر "محمد" بتوتر المدير وصمته فأحس أن هناك ما يدور في الخفاء، فسارع للتحرك إلى الخارج بسرعة الصاروخ غير آبهٍ بذلك البدين وكرشه الضخم الذي يهتز وهو يحاول النهوض من مكتبه للحاق به، ولا بتلك الحسناء وصرخاتها التي تدوّي من خلفه، تناهى لمسامعه صوت أقدام رجال الشرطة قادمًا من أسفل، محدثًا دويًّا وصخبًا، فارتعدت فرائصه، لن يبقى حتى يتم القبض عليه واستجوابه، هو يعرف تمامًا ما

سيحدث، ما الذي يجعل أحدهم يفضِّل البقاء في الشمال وهو يحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية؟ كل من هم على شاكلته غادروا البلاد باحثين عن الأفضل، هو نفسه عانى البطالة لفترة طويلة بعد أن أغلقت حتى الجامعات أبوابها والتحق الطلاب بالجيش الشعبي للدفاع عن الشمال، كما طُلب منهم. يعرف أن الشرطة ستلقي القبض عليه للتحقق من عدم انتمائه للجنوب، الذي سيثبت لهم، لكن بعد مصرعه، بالتأكيد سيلقى حتفه في أثناء الاستجواب، هو يعرف أساليب التعذيب وانتزاع الاعترافات التي استُخدمت مع كثير غيره من قبل، بل ربما كان حظه حسنًا فقتلته تلك الجموع في الميدان لو سمعت بالشك في انتمائه للجنوب المتمرد.

دار ذلك كله بخلده للحظة كانت كافية ليقترب رجال الشرطة منه، ومع ارتفاع صوت السكرتيرة من الداخل، ظهر أول رجال الشرطة وهو يشهر مسدسه صارخًا:

- مكانك أيها الجنوبي الحقير.

لم يكن هناك مجال للتفكير ولو للحظة واحدة، كان قراره هو البحث عن طوق نجاة، فلم يجد بُدًّا من الركض على الدرج إلى أعلى، لكنه لم يكد يتحرك لبضع درجات حتى اهتز جسده بعنف، مصابًا بعدد من الطلقات، فسقط أرضًا مضرجًا بدمائه، ولاحت له صورة زوجته وهي تبتسم من بعيد مشيرة بيدها نحوه. وعلى الرغم من آلامه المبرحة وروحه التي تُنتزع، رفع يده ببطء وهو يشير نحوها لتتسع ابتسامتها وتتألق، ويخبو بعدها بريق الحياة من عينيه..

إلى الأبد.

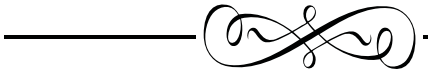

هَـدّنا اليأسُ، وفاتَ الغَرَضُ.
لمْ يَعُدْ مِن أمَـلٍ يُرجى سِواكُـمْ !
أيُّهـا الحُكـامُ باللهِ عليكُـمْ.
أقرِضـوا اللهَ لوجـهِ اللهِ قرضـاً حسَناً.. وانقَرِضـوا

أحمد مطر

· ديوان أحمد مطر ·

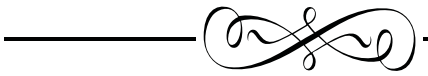

(٥)

السادة والعبيد

بهدوء شديد، كالمنوَّم مغناطيسيًّا، يستدير لمواجهة المرآة، تلك الملامح التي تواجهه ليست له بالتأكيد، لم يكن يومًا بذلك الوجه الممتقع المكسو بشحوب الموتى، عيناه الجاحظتان بصورة لم يعهدها من قبلُ، وتلك الأهداب التي تكسو جفنيه، تأبى أن تتحرك من مكانها، أصبحت كجيشين في ساحة المعركة، يخشى كلاهما ملاقاة الآخر.

يحرك راحتيه إلى أعلى، ارتعاشتهما لا تخفى عليه، تلك العروق النافرة تخفي أطنانًا من التوتر، أظافره المتسخة لم تكن كذلك يومًا، إهماله لتلك اللحية التي أولاها كل العناية من قبلُ جعل شعيراتها البيضاء التي ظهرت فجأة تخيفه إلى أقصى حد، تبدو أمامه للوهلة الأولى كرايات الاستسلام في معركة لم تبدأ بعدُ.

يتحرك لا إراديًّا إلى الأمام قليلًا، يده تمتد لتفتح الصنبور، المياه تتساقط بلونها الداكن الذي حاول اعتياده من دون جدوى، تتساقط قطرات الماء لتلامس راحته الممدودة، تختلط بالدماء التي لوَّثت يديه وروحه منذ قليل، ينجح جزئيًّا في إزالة الدماء بعد أن رسمت خطوطها المرعبة في راحتيه.

تحين منه التفاتة إلى الخلف قليلًا ناحية الأريكة القديمة ذات الذراع المكسورة، التي تتصدر غرفة الجلوس؛ حيث جسد زوجته وقد تلطخ بالدماء، وقطراته تغرق السجادة البالية، وعلامات الرعب تأبى أن تفارق ملامحها، حتى بعد أن فقدت عيناها بريق الحياة.

كشريط سينمائي لعين، تمر أمامه حياته المدمرة، ولحظات سعادته المبعثرة كحاملة جنود أصيبت بصاروخ حارق إصابة مباشرة، يذكر جيدًا كيف حدث الأمر، كملايين من بني وطنه عانى في الفترة الأخيرة لعنة ركود اقتصادي تحوَّل لانهيار، وجد نفسه في الشارع تركله الأقدام بعد أن أفنى عمرًا بتلك الشركة العتيقة.

سيُطرد من مسكنه، لن يستطيع توفير مسكن بديل، لن يجد قوت يومه بعد الآن، نفقات علاج زوجته من مرضها اللعين هي الأخرى خارج نطاق قدرته، هي اختارت أن تتألم في صمت، لم تشكُ، على الرغم ممَّا يعتصرها من ألم، استسلمت لقدرها ولشبح الموت الزاحف ببطء، كأخطبوط ترسَّخ يقينه بعجز ضحيته عن الإفلات، طعناته منذ قليل أودت بحياتها، لن يتركها من خلفه تقاسي العذاب.

أوراق الجريدة مبعثرة في المكان، تلطخت بالزيوت منذ ساعات عند تناول الإفطار الأخير، تلفت انتباهه تلك الصورة لرجل أنيق في حلته العسكرية، يقترب منها وشياطين غضبه ترمي بشرر ملتهب، وصوت صاحب الحلة العسكرية ينبعث من تلفازه العتيق الذي أبى أن يبث صورة منذ فترة بعيدة:

- بلادنا تمضي في صدارة ركب التقدم، غدًا ستشرق شمس أمتنا لنسود العالم من جديد.

يقترب من جسد زوجته قليلًا، قبل أن تمتد يده محاولًا ملامسة شعرها الحريري كما اعتاد من قبلُ، قبلَ أن يعلن وأد الفكرة في مهدها، يقترب أكثر من جهاز التلفاز ليركله بقدمه ليتهشَّم بصوت مكتوم، ليخرس ذلك الصوت المنبعث من داخله إلى الأبد.

يعود أدراجه إلى الخلف، يلقي نظرته الأخيرة على صاحبة الوجه المنهك بالمرض، على الرغم من كونها في ريعان شبابها، قدمه تطأ تلك الصورة لصاحب الحلة العسكرية، يتوقف قليلًا مستمتعًا بسحْقِه، يُشعل آخر سيجارة لديه، تشتعل مقدمتها كنظرة شيطان نبتت في الجحيم، ليدسها في البقايا المهترئة لصورة الرجل العسكري، لينبعث دخان رمادي من موضع العين تمامًا، تتألق ابتسامة نصر باهتة فوق شفتيه، قبل أن يقترب من شرفته المطلة على الشارع، لا صوت في مدينة الأشباح تلك، حتى الكلاب الضالة خارت قواها وفقدت قدرتها على النباح.

يستنشق ذلك الهواء الملوث بأدخنة القمامة، قبل أن يقفز إلى الأمام، ليحلق قليلًا وابتسامة شيطانية ساخرة ترتسم فوق ملامحه، ثم يظلم كل شيء.

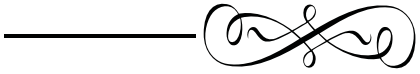

في زمن الخِداع يكونُ
قول الحقيقة عَملاً ثورياً.

(جورج أورويل)

(روايةِ ١٩٨٤)

(٦)

المترجم

مقتبسة عن قصة
للكاتب التركي عزيز نيسن

التقطتُ شهيقًا متوترًا، قبل أن أطلقه زفيرًا ملتهبًا، وأنا أخطو لأول مرة إلى داخل ذلك المكتب الفخم بأرقى مناطق العاصمة لمقابلة مسئول دار النشر الحكومية الكبرى، وذلك بعد أسابيع من الانتظار لأحظى بموعد لا يتعدى نصف الساعة.

بزيّه الأنيق وتلك الصور التي تجمعه بكبار رجال الدولة وسيجاره المكتنز، الذي أثار استغرابي في بادئ الأمر، والذي لا أذكر مشاهدته يومًا سوى على شاشات السينما بين أسنان رجال المافيا، أو كبار تُجَّار الآثار أو التهريب، والمكتب الفخم يتصارع مع السيجار ليحظى بفرصته الكاملة في خطف بصري بدوره، بنقوشه الخلَّابة، قبل أن أستفيق من شرودي على صوت هاتف المسئول، الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا بمحدثه مبتسمًا، ليُنهي الاتصال بعد قليل فتعود ملامح الجدية تحتل قسمات وجهه من جديد وهو يقول:

- هات ما لديك.

كلماته الجادة لم تدع لي مجالًا لكلمات سهرتُ ليلةً كاملةً أنمّقها لأجل اللقاء، فلا كلمة ترحيب واحدة من جانبه، وهو ما لم أضعه في الحسبان؛ فالرجل يبدو ودودًا للغاية في أثناء تلك اللقاءات التليفزيونية التي يطل منها على القراء والمثقفين كل حين.

ألتقط أوراقي المكدسة داخل ملفّي البلاستيكي لأقدمها بيد شبه مرتعشة ناحية الرجل، وأنا أقول: - تلك الرواية الاجتماعية تتحدث عن شاب مصري يدرس بالولايات المتحدة ويتعرض...

إشارة صارمة من يد الرجل تجعلني أبتلع ما تبقى من عبارتي قبل أن يأتي صوته حاسمًا: - تلك الموضوعات ليس لها قُرَّاء لدينا، إذا كانت لديك موضوعات في أدب الرعب فأنت مرحَّب بك، أو روايات مترجمة، تلك هي المجالات المطلوبة والمسموح بها الآن.

كلمات الرجل تصيبني في مقتل، ليرتجَّ كياني كاملًا على أثرها، ما تسبب في انهيار برجي العاجي الذي طال أمد انتظاري في بنائه حتى بلغ السحاب، لينهار فجأة أمام ناظري كبناء أصابه إعصار فيه نار فاحترق مخلفًا كومة من رماد تذروه الرياح.

كومضة تأبى انهيار ذلك الأمل تخرج كلماتي، متشبثًا بخيط رفيع من الأمل، كغريق تعلَّق بقشة تطفو على سطح الماء، وكلماتي تخرج بصعوبة كمن يخشى افتضاح أمره بالجرم المشهود:

- لديَّ رواية قُمت بترجمتها عن الإيطالية لكاتب إيطالي من جيل الشباب...

قاطعني الرجل وهو ينظر في ساعته وكأنه يجبرني على النهوض والمغادرة:

- غدًا، في مثل هذا الموعد، أحضِرْ تلك الرواية، ولجنة القراءة لدينا ستمنحك ردها خلال أسبوعين على الأكثر؛ فنحن في عجلة من أمرنا بالنسبة للروايات المترجمة وأنتم معشر المترجمين كسالى.

أمام جهاز الحاسب الآلي أمضي تلك الليلة كاملة وأسطُر روايتي تتسارع أمام عينيَّ وأنا أمحو كل ما يتعلق بـ«أحمد»، بطل روايتي الأصلية، لأستبدل به «ليوناردو» وأمحو «القاهرة» من الفصل الأول بأكمله وأنا أضع «روما» مكانها، وأحمد الله تعالى أن بقية أحداث الرواية تدور في شوارع «نيويورك» و«مانهاتن» بأمريكا، فلن أضطر لاستبدالهما.

في الموعد نفسه من اليوم التالي، قُمت بتسليم ذلك النص بعد أن تكبدت عناء طباعته من جديد لدار النشر، بعد أن وضعت اسم كاتب إيطالي خطر ببالي وأنا أشاهد مباراة مصارعة المحترفين بين «ألبرتو ديل ريو» و«سانتينو موريلا» لأكتب على الغلاف: رواية بقلم «ألبرتو موريلا»، وأزيح اسمي إلى الأسفل قليلًا وأنا أسبقه بكلمة «المترجم».

مضت سنوات حتى الآن منذ ذلك اليوم، وكلما تذكرته ضحكت بقوة حتى تسيل دموعي، حتى اعتقد بعض الحاضرين أن لوثة من الجنون أصابتني، وربما عاتبني أحدكم أو توقَّع أن يتم كشف تلك الكذبة، لا تلوموني أيها السادة، ففي كلتا الحالتين، ما أهمني هو إيصال كلماتي ليس إلَّا، أما اكتشاف تلك الكذبة، فهؤلاء الحكوميون الذين شغلوا مواقعهم لسنوات أصبحت برمجتهم العقلية تسير في اتجاه واحد لا فروع له، أترككم الآن فأنا على عجلة من أمري، سأقوم بتسليم ذلك المسئول نفسه روايتي السادسة «المترجمة» عن الإيطالية.

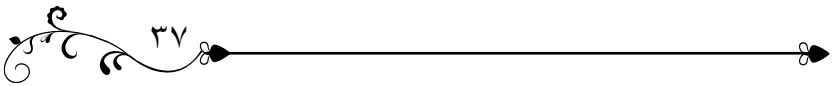

" الخيانة لا تزدهر،

لأنها إذا ازدهرت فلن يجرؤ أحد على

تسميتها خيانة."

جون هارينغتون

(٧)

بنت الوكيل

بهدوءٍ حذر، راح يقطع ذلك الشارع الترابي المظلم بأطراف قريته البائسة في تلك الليلة قارسة البرودة وهو يتلفَّت حوله، قبل أن يصل إلى أحد الأسوار المتهدمة، الذي اشتكى طوبه اللبِن الذي بُني به منذ زمن من طول الوقوف فأحنى جانبه قليلًا ليتهدم الجزء العلوي منه تاركًا بقية السور تصارع الزمن.

جلبابه، الذي مال لونه إلى السواد، أخفاه عن تلك العيون التي مر أصحابها من بعيد، مهرولين نحو بيوتهم اتقاءً لتلك الموجة الباردة التي حطت على المنطقة بأسرها، فأصبح هواؤها يخترق العظام من برودته، خاصة حينما يُرخي الليل أستاره.

خطته تسير بإحكام؛ فذلك المنزل الذي يقصده سيثير المتاعب والشبهات حوله إن شاهده أحدهم وهو يخطو بداخله؛ لذلك جعل ذلك الشاب الأبله «مستور»، ابن الغفير، ينشر في القرية بأن ذئبًا يتجوَّل في تلك المنطقة النائية ليلًا؛ ليصدِّق الجميع كلمات ذلك المعتوه الذي أشاع بين الناس أنه «مبروك»، خاصة حينما أراد «مستور» أن يضيف تجويدًا للرواية فأخبر أهل القرية بأن

الذئب مصدر شر وأن الدماء ستسيل في تلك الليلة.

يقفز من فوق السور ليجد نفسه وسط مجموعة من أشجار النخيل، ليسير بينها ملتحفًا بالظلام حتى يصل إلى وجهته الأخيرة، ذلك المنزل القديم قِدَم عمر القرية، القابع خلف أشجار النخيل التي حجبته تقريبًا عن عيون المارة قبل أن يصل إلى ذلك الباب الخشبي ليطرقه ثلاث طرقات ثم يصمت للحظات ليكمل طرقه بواحدة.

لحظات أخرى تمضي ثقيلة قبل أن يأتيه صوت الخطوات بالداخل وكأن صاحبها يمتطي السلحفاة للوصول إلى الباب، ثم تمتد تلك اليد التي برزت عروقها لتزيل مزلاج الباب وتجذبه إلى الداخل، ليُصدر ذلك الصوت الذي يشبه تحطُّم عظامٍ نخرة.

بالداخل، صوت العطن عشّش في المكان، والظلام يغمر كل شيء إلا بصيصًا من تلك اللمبة التي لم يعد لها وجود في ذلك الزمان، والتي تحملها تلك العجوز وتسير أمامه من دون كلمة واحدة قبل أن تصل إلى وسط المنزل؛ حيث تجلس أخرى وقد أشعلت النيران بقطع الفحم التي تتكدَّس بذلك الموقد الفخاري، والبخور المتصاعد، ممتزجًا بأدخنة النيران، يصنع أكثر المشاهد رعبًا بالنسبة له.

أشارت له العجوز الجالسة أمام الموقد بيدها فجلس أمامها قبل أن تتطلع إلى وجهه بتمعُّن، ثم يأتي صوتها كحشرجة تخرج من حنجرة تهشَّمت منذ زمن وهي تقول:

- أنت منصور ولد الحديدي؟

أومأ برأسه إيجابًا وهو يزدرد لعابه متسائلًا بداخله.. كيف عرفته تلك العجوز التي لم يبصرها في حياته، والتي تبدو وكأنها مومياء فرَّت للتوِ بعد إتمام تحنيطها؟ لتلتهمه تلك النظرة القاسية من عينيها وكأنها قرأت ما يفكر فيه، لتكمل حديثها:

- ماذا تريد؟

أحسَّ بجفاف حلقه، على الرغم من ذلك البرد الذي يفري العظام، وأوشك أن يطلب قليلًا من الماء يبلل به شفتيه، لكن نظرة واحدة إلى تلك الغرفة التي يمكث بها وتلك العجوز القابعة أمامه أثنته تمامًا عن ذلك.

التقط شهيقه بصعوبة من بين تلك الأدخنة المتصاعدة أمامه قبل أن يجيب:

- مريم، بنت الوكيل.

لمح شبح ابتسامة تغازل طرفي فم العجوز قبل أن تمتد يدها لتقلِّب قطع الفحم أمامها، والأخرى تلقي المزيد من البخور، لتعود الأدخنة للارتفاع حتى تلامس سطح الغرفة بعد أن كادت تنطفئ النيران في الموقد، ليأتي صوت العجوز قائلة:

- مريم بنت الوكيل، أجمل صبايا الجبل، والكل يخطب ودها وود الوكيل، خمسة أفدنة من نصيبها، وهي الوريث الوحيد لوالدها.

جاء صوته وكأنه ينفي عن نفسه تهمة الجشع التي تحاول العجوز، فيما يبدو، إلصاقها به:

- بعد عمر طويل، الأعمار بيد الله، والكفن بلا جيوب.

ابتسمت في مكر، وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، أصاخ السمع محاولًا فك طلاسمها إلا أنه أعلن عجزه تمامًا فاستسلم للصمت قبل أن يأتي صوتها قائلًا:

- الحب من عند الله، والبُغض من عند الله، ربك يقلِّب القلوب كيف يشاء.

انعقد حاجباه وهو يستمع لكلماتها التي بدت وكأنها تخرج من فم عالِم دين، وليست تلك العجوز الساحرة التي يمقتها كل أهل القرية ويتجنبون حتى المرور من أمام ذلك البيت الذي ورثته عن أبيها منذ زمن، قبل أن يأتي صوت العجوز مستطردة:

- استمع لما سأقوله، وإياك أن تحيد عنه حرفًا واحدًا.

أخذت تلقي على مسامعه تلك الخطة الجهنمية التي ستوقع الفتاة في حبائله، وكان ما تقوله شيطانيًّا، شيطانيًّا بحق، ستدخل امرأة من خارج القرية لمنزل بنت الوكيل لتعرض بضاعتها من الأقمشة الحريرية، لتخبر الفتاة بأن تلك الأقمشة بها عطور طبيعية لا تذهب مع الزمن لتقترب الأخيرة من الأقمشة تشمّها، فلا تدري بعدها إلا وقد غابت عن الوعي بعد أن يذهب أثر المخدر الموضوع بالأقمشة بوعيها.

ستفتح المرأة الباب في تلك اللحظة المتفق عليها ليدخل منصور، بعدها تصرخ المرأة وتشهد أمام الناس بأنها رأت ما لا تستطيع ذكره، وقتها يعلن منصور أن المرأة كاذبة وأنه لم يحدث شيء من ذلك، وللدفاع عن شرف تلك الفتاة البريئة فإنه يقبل بها زوجة أمام الله والناس.

خرج منصور في تلك اللحظة منتشيًا بتلك الخطة الجهنمية التي اقترب موعدها ليظفر بتلك الرائعة بنت الوكيل ومعها الأفدنة الخمسة، لم يعد يشعر بالبرد لفرط حماسته وهو يقفز إلى الجانب الآخر من السور، قبل أن تنطلق تلك الرصاصة من بعيد لتخترق موضع القلب لديه تمامًا، ليسقط أرضًا مضرجًا في دمائه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

من بعيد، تجمَّع أهل القرية، بعد سماعهم صوت إطلاق الرصاص؛ ليرقص بينهم ذلك الأبله «مستور» وهو يحمل بندقية والده التي تصاعد الدخان من فوهتها، وهو يردد:

- قتلت الشر، قتلت الشر.

مساكين أولئك الذين ظنوا أنَّ الموت أو الغياب السحيق سوف يُودِي بصاحب الجبّ، لم يَدُرْ في خلدهم يوماً أن الفضاءات المطلقة تبدأ من الجحور الضيقة

أيمن العتوم

يا صاحبي السجن

(٨)

المعتقــل

أمام شاشة التلفاز، تسمّر في جلسته وهو يطالع صاحب الوجه المألوف الذي أطل على غير موعد من خلف الشاشة، زاغت عيناه وتاهت نظراته، وهو يحملق في تلك القسَمات المألوفة، وكلمته تخرج يتيمة من فمه:

- مستحيل.

يلحظ صديقه نظرة الهلع المطلة من عينيه، فيتبادر السؤال إلى ذهنه قبل أن يتخذ طريقه للسانه متسائلاً:

- هل تعرف ذلك الرجل؟

عجز لسانه عن الرد، جفاف ريقه أشبه ما يكون بجفاف الدماء في عروقه، وقد أبت أجفانه اللقاء، ليبقى محملقاً في الشاشة التي تعرض خطاباً رسمياً للرجل، ولم تسعفه سوى تلك الإيماءة من رأسه وهو يُدير بصره ناحية زميله، وصوته يخرج متحشرجاً، مغلفاً بقدر هائل من المرارة وهو يقول:

- سأروي لك كل شيء، كل شيء. وبدأ يروي..

لم تكن قريتنا سوى نقطة لا تكاد تُرى على خريطة الوطن، ملقاه في ركن مقفر من التاريخ والجغرافيا على حد سواء، مسجدها القديم الواقع أمام

منزلي مباشرة أجمل ما فيها على الإطلاق، ملاذي من حرارة الصيف بمنزلي الفقير والذي لم تزره الكهرباء في ذلك العهد، وملجأي حينما تدلهم الخطوب وتتراكم مصائب الحياة، قبل أن تتخذ من رأسي بيئة صالحة للتكاثر، ألجأ للمسجد لأسجد طويلاً، تروي دموعي فُرُشه القديمة، فترتد على هيئة زخات من الرحمة، تداوي أوجاع قلبي البائس.

يعود شباب قريتنا الدارسين بعيداً في مدارس المحافظة وجامعتها اليتيمة أسبوعياً في إجازات قصيرة للقرية، قبل أن يطول بقائهم فيها صيفاً، تربطني علاقات صداقة بالجميع بلا استثناء، رغم أن مساري التعليمي لم يكتمل بسبب رحيل والدي، ومن قبله بسنوات معدودة والدتي، لأترك الدراسة متفرغاً لتلك القراريط الزراعية ليل نهار، جمال خطي وحفظي للقرآن جعل من لا يعرفني يقسم بالأيمان المغلظة بأنني أحد طلاب الجامعة، رغم انقطاعي عن التعليم منذ سنوات.

يطرأ التغيير شيئاً فشيئاً على هيئة وتعامل أصدقائي من طلاب القرية الدارسين بالجامعة، الأبيض يطغى على لون ملابسهم، ترتفع ثيابهم عن الأرض قليلاً، لا تعرف شفرات الحلاقة إلى لحاهم سبيلاً، ترق أصواتهم، وفي لين ورفق يكون تعاملهم، كلام ربنا وأحاديث المصطفى تتخلل عباراتهم، أشعر بسحر غريب يجذبني بذلك الاتجاه.

أنخرط في حلقات الدرس، أبدأ في دراسة الفقه والتوحيد، وملازمة الجماعة، فالذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، كنت لم أزل شابا تجاوزت العشرين بقليل، تضمني جدران بيتي الفقير بزوجتي التي لم تمض أشهر معدودة على زواجي منها، وأرضي الزراعية تكفيني سؤال الناس، لم تدم تلك

الأحوال سوى عام أو بعض عام، مناوشات تحدث بين الأمن وبعض الطلاب في الجامعة، ليتخذ رجال الأمن طريقهم نحو قريتنا، مداهمات ليلية تسفر عن القاء البعض خلف جدران المعتقلات، لم أكن يوماً أحد طلاب الجامعة، ولم أغادر قريتي، ولكن قدري جمعني بهؤلاء الطلاب في غياهب المعتقل.

تنهد قليلاً، وهو يشرد بعيداً نحو سنواتٍ مضت مكملاً روايته:

سنوات ثلاث، قضيتها خلف الجدران، عانيت فيها من قسوة التعذيب، بارت أرضي الزراعية، وجاءت الضربة القاسية حينما جاء الإصرار بشدة على طلاق زوجتي من قِبل أهلها، صلة القرابة البعيدة بيننا جعلتني أوافق على الطلاق، هؤلاء المساكين لا ناقة لهم ولا جمل فيما لحق بي، ربما طالهم الأذى إن ظلت ابنتهم زوجة لي، لا حرية مرتقبة في الأفق لتنتظر، ولا عائل لها لتبقى بمنزلها.

خرجت محطماً محاولاً تضميد الجراح، ولكن الشروخ أصابت جدران الروح، حتى كادت تحت قسوة آلامها تنهار، لولا بقية من أمل لإكمال الحياة، وطوال تلك السنوات لم أتمكن من نسيان صورة ذلك الرجل الذي أشرف على تعذيبي.

عاد بصره نحو الشاشة التي تعرض مؤتمراً صحفيا للرجل، قبل أن ترتسم ابتسامة ساخرة مريرة فوق شفتيه، وهو يقول:

- من أشرف على تعذيبي بلا ذنب جنيته، هو ذلك الرجل المتحدث بلباقة للإعلام، هل ترى تلك اللافتة التي تزين مكتبه الفخم؟ ، "رئيس مجلس حقوق الإنسان"

و ازدادت ابتسامته مرارة.

إن في القلب شعث: لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة: لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن: لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته

ابن القيّم

(٩)

سهام القدر

ابتسامة ودود تحتل الجزء الأكبر من وجه الأستاذ "فكري"، معلم الرياضيات بالمدرسة الإعدادية بقرية الجبل الغربي بوسط الصعيد، وهو يستقبل ذلك الزميل الجديد، "عبد الرحمن"، ذا الشعر الأشيب، الذي تجاوز الأربعين من عمره منذ أشهر، وانضم مؤخرًا لطاقم التدريس بالمدرسة، قبل أن تبدأ رشفات الشاي الساخن، لتذيب ما تبقَّى من جدران الثلج التي تحجب تفاصيل حياة الأخير عنه، لينطلق لسان "عبدالرحمن" وهو يتحدث عن حياته في أقصى الجنوب بمحافظة أسوان؛ ليختم حديثه قائلًا:

- لستُ متزوجًا، ولا يبدو أنه سيحدث قريبًا، لستُ ذلك الوغد الذي يجلب أبرياء إلى هذه الدنيا مضيفًا لها ولهم شقاءً وبؤسًا آخرَين.

هزَّ "فكري" رأسه، دليلًا على عدم اقتناعه بذلك المنطق، ليعلن يأسه أخيرًا من إقناع زميله بالعدول عن تلك الأفكار الغريبة في مقاطعة الزواج، قبل أن يعلن يأسه تمامًا من تغيير مفاهيم الأخير الخاطئة، وهو يودع "عبد الرحمن" في نهاية يومه الدراسي الحافل، متوجهًا نحو غرفته بذلك المبنى

المجاور للمدرسة، المُعَدّ للمعلمين المغتربين، ليغلق بابها خلفه، مهمهمًا بعبارات تُظهر عدم اقتناعه بذلك المنطق السخيف من وجهة نظره.

تمر الدقائق بطيئة وهو يجاهد لوأد تلك الدموع التي تترقرق في مآقيه متذكرًا زوجته سهام، التي عشقها منذ اليوم الأول الذي التقاها فيه بتلك المدرسة بالإسكندرية، يومها لم يمهله «كيوبيد» لحظة واحدة، بل أصاب قلبه بسهمه الذهبي ليرفع راية استسلامه قبل بداية الجولة، ليعلن بعدها بأقل من شهرين ارتباطه بزميلته سهام؛ لتكون شريكة حياته إلى الأبد.

كانت الحياة تمضي بهدوء رومانسي، كسفينة فوق صفحة النيل، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قلب حياته رأسًا على عقب، في إحدى عيادات أمراض النساء؛ حيث جلس الطبيب خلف مكتبه متظاهرًا بمطالعة تلك الأوراق، قبل أن يضعها أمامه مطلقًا زفرة أودعها كل ما يشعر به من توتر قبل أن يطلق قنبلته الحارقة وهو يخبره أن تحاليل زوجته تؤكد إصابتها بالعقم، وأن قدرتها على الإنجاب تكاد تصل إلى الصفر، قبل أن يضيف تلك العبارات التي طالما كررها في أثناء عمله عن الرضا بالنصيب وعدم فقدان الأمل وأن الطب يصل كل يوم إلى وسائل حديثة و...

يومها، لم يكمل الاستماع إلى تلك الديباجة التي يحفظها كل أطباء النساء عن ظهر قلب، بل خرج إلى الشارع لا يلوي على شيء، ظلَّ سائرًا لساعات حتى شعر بالإعياء، ليعود لبيته بعد حلول الظلام، وعقله يسطر تلك الكذبة التي سيلقيها بين يدي زوجته، بأن الطبيب أخبره بأن كل شيء على ما يرام وزوجته لا تحتاج لعلاج، لكن مشيئة الله لم تُرِد بعدُ ذلك الجنين المنتظر.

سياط من التوتر تُلهب عقله ويرتجف لها قلبه وتسيطر على كيانه كله

وهو يخطو إلى الداخل، ليجد زوجته منهارة تمامًا وتخبره بأنها اتصلت بالطبيب للسؤال عنه فأخبرتها الممرضة بما أسفرت عنه تلك التحاليل، لم يشعر في حياته بتلك الحالة من اليأس والإحباط كما شعر بها وهو يحتضن زوجته وهي ترتجف بين يديه.

كان كمن غابت روحه عن جسده وبقي ذلك الجسد ليصارع للنجاة بلا أدنى أمل، طلبت منه زوجته في تلك الليلة أن يتزوج بأخرى، فلا ذنب له في تلك المعاناة، بل هو حكم الملك العدل الذي لا رادَّ له، يومها أطلق ذلك الوعد بأنه لن يكون لغيرها ما دام حيًّا، ولقد أبر بقسمه طويلًا.

تمرُّ أيامه بطيئة كسلحفاة كسيحة تسير فوق جمرات من الجحيم، لم يستطِع أن يكمل حياته بتلك الطريقة، ترك زوجته بجانب أهلها في الإسكندرية وهرول إلى تلك المدرسة الواقعة في أعماق الصعيد للانفصال عن ذلك الواقع القابع كحجر ثقيل فوق أنفاسه.

بدأ في خلع ثيابه وهو يهز رأسه مستعيدًا كلمات صديقه الجديد عبد الرحمن عن ذلك الوغد الذي سيكون سببًا في شقاء طفل في تلك الحياة القاسية، كم تمنى أن يكون هو ذلك الوغد! هو يمتلك من القدرات المادية التي ورثها عن أسرته ما يمكِّنه من تأمين حياة كريمة لنصف دستة من الأطفال على الأقل، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

زفر بقوة، مُزيحًا عن كاهله تلك الذكريات التي تؤرِّقه، لكن وجه زوجته سهام عاد ليرتسم أمامه تارة أخرى وهي تنتحب يوم عرفت أنها ستُحرم بقية حياتها من الإنجاب، لتتراقص الدموع في مآقيه، لم يبذل جهدًا يُذكر لمنعها، بل تركها تسيل على وجنتيه لعلها تكون متنفسًا لذلك البركان الثائر الذي يحرق

كيانه كله.

توجَّه ناحية المرحاض بعد أن أتم خلع ثيابه ورفع وجهه للأعلى وهو يستقبل قطرات الماء التي تنساب على جسده، لعلها تغسل تلك الأوجاع التي تراكمت فوق روحه ليعانيها جسده، تلك الأوجاع التي تنتابه بين الحين والآخر لتخبره بأن هناك في الحياة ما يستحق الاهتمام، أو إن شئت الدقة: من يستحق الاهتمام.

يشعر بالذنب تجاه سهام، التي تركها خلفه متجهًا لغياهب الصعيد، هاربًا من واقعه، على الرغم من أنه يعلم يقينًا أنها في أشد الحاجة لبقائه بجوارها.

نفض عن رأسه ذلك الصوت الذي يعيد الماضي أمامه كشريط سينمائي محزن، قبل أن يضع ذلك القرار الذي طرأ بباله موضع التنفيذ، سيطلب نقله مرة أخرى إلى الإسكندرية، لن يتركها ليهرب من ذلك القدر، حتى لو أدى الأمر إلى استقالته من العمل نهائيًا.

تنهَّد بعمق حينما أحس بارتياح لتلك الفكرة التي سيشرع في تنفيذها على الفور، وأغمض عينيه، واستسلم لخرير الماء.

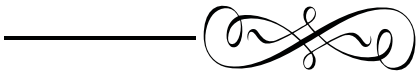

هلْ مِنَ الحِكمةِ.

أنْ أهتِكَ عِرْضَ الكَلِمَةْ بِهجاءِ الأنظِمَةْ ؟

كِلْمَتي لو شَتَمَتْ حُكّامَنا

تَرجِعُ لي مشتومةً لا شاتِمةْ!

· أحمد مطر ·

· ديوان أحمد مطر ·

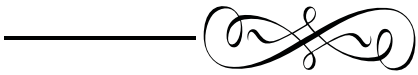

(١٠)

الجنرال الأخير

ينقل خطواته ببطء وتثاقل يتناسبان مع سنوات عمره التي ناهزت السبعين، وإن لم تخلُ تلك الخطوات من ثباته المعهود، يتوكَّأ على عصاه ذات الرأس المعقوف على شكل أفعى الكوبرا، لم تفارقه منذ عشر سنوات مضت على الأقل، متأبطًا ذلك الكتاب الضخم في حرص، قبل أن يعبر بوابة القاعة الكبرى في قصره الرئاسي.

في احترام واضح، ينهض جميع زعماء العالم الثالث من مقاعدهم لاستقباله، قبل أن يشير نحوهم بالجلوس حول تلك الطاولة المستديرة التي ستشهد اجتماعهم السنوي في تلك اللحظات.

لم يكن الرئيس «شريف»، رئيس دولة «أرسينا» المستضيفة للقمة، أحد هؤلاء القادة فقط، بل كان عميدهم بسنوات حكمه التي اقتربت من الثلاثين عامًا منذ نفَّذ انقلابه العسكري ضد قائده السابق، الذي وصل إلى الحكم بدوره بانقلاب عسكري سبقه بعشر سنوات كاملة.

يُقلِّب عصاه بين يديه ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يتطلع نحو عقارب ساعته الذهبية باهتمام، وهو يشير للزعماء بطرح مقترحاتهم لتنمية

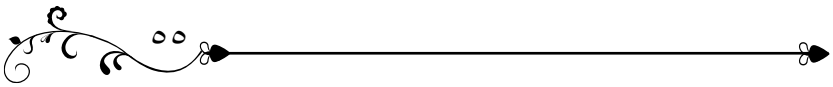

دول العالم الثالث، ليبدأ رئيس دولة «بالينا» بطرح رؤيته، التي تمثلت في زيادة الضرائب المفروضة على أفراد الشعب، مبررًا ذلك بأن متوسط دخل الفرد في بلاده قد ارتفع ليناهز الدولارات الخمسة يوميًّا.

أومأ الرئيس «شريف» برأسه، وعيناه تلتمعان بذلك البريق العجيب الذي اكتستا به منذ فترة ليست بالقليلة، قبل أن يشير نحو رئيس دولة «كوالا» ليدلي بدلوه في ذلك الحوار، الذي تنحنح ويده تتحرك بعصبية قبل أن ينطلق لسانه بما ينوي طرحه قائلًا:

- تلك الحرب المشتعلة منذ عامين بين دولتي الشرق والغرب العظميين، كبَّدتهما خسائر فادحة في الأرواح، حتى إن أسلحتهما المكدسة لم تجد من يستعملها؛ لذلك، فقد تلقيت اتصالًا من رئيس دولة الغرب يعرض فيه مليارات الدولارات مقابل مشاركة نصف مليون من جنود دولنا في الحرب إلى جوار بلاده، ولقد وافقت على مشاركة مائة ألف من جنود «كوالا»، وجئت لطرح تلك الفكرة بين يدي حكماء العالم الثالث؛ فهي المخرج الأكيد من أزمتنا الاقتصادية.

أومأ الرئيس «شريف» برأسه متفهمًا وهو يتطلع نحو ذلك الجنرال الهادئ، الذي وصل بدوره للحكم بانقلاب عسكري أطاح بحكومة دولة «بيجان» منذ عام تقريبًا، ليبدأ كلماته معبرًا عن سعادته بانضمامه للمرة الأولى لذلك اللقاء، معبرًا عن امتنانه لتلك الكوكبة من حكماء العالم الثالث التي ستقود بلادها نحو الاستقرار والرخاء.

ابتسم الرئيس «شريف» في هدوء لم يُخفِ تمامًا نظرات السخرية التي رمق بها رئيس «بيجان» وهو ينقل بصره نحو رئيس وزراء دولة «سمران» الذي

بدأ كلماته بالاعتذار عن عدم حضور رئيس دولته ذلك الاجتماع؛ لمروره بوعكة صحية طارئة، لتتسع ابتسامة الرئيس «شريف» وكلماته تخرج من بين شفتيه متمنيًا السلامة لصديقه رئيس دولة «سمران»، وهو يرمق رئيس الوزراء بنظرة ذات مغزى، وذاكرته تستعيد ذلك التقرير المهور بختم «سري للغاية»، الذي اطلع عليه منذ ساعات والذي يفيد بأن رئيس دولة «سمران» قد قُتل على يد رئيس وزرائه، وإن لم يتم الإعلان عن مصرعه بعد، وتم ترتيب الأمر على أن يبدو كوعكة صحية أودت بحياته.

تطلَّع الجميع نحو الرئيس «شريف» في انتظار كلماته، التي لم تتأخر كثيرًا بدورها، ليعتدل في جلسته، وهو يبدأ حديثه، مرحبًا بكل القادة الذين لبّوا دعوته لحضور هذا الاجتماع المهم للبحث في مستقبل دول العالم الثالث قبل أن ينطلق لسانه بطلاقته المعهودة وهو يقول:

- مشكلات شعوبنا متنوعة ومتفاقمة، لن يستطيع حاكمٌ معها صبرًا، إلا هؤلاء الجبابرة، الذين تقلدوا تلك المهام الجسام من أجل رفعة أوطانهم.

تألَّقت أعين القادة في زهو والرئيس «شريف» يكمل:

- مقترحاتكم تتلخَّص في فرض المزيد من الضرائب على كاهل المواطنين، أو القيام بتأجير نصف مليون جندي للقتال إلى جانب حاكم الغرب، وربما نصف مليون آخر للقتال إلى جوار حاكم الشرق، أليس كذلك؟

أومأ الجميع برؤوسهم مؤمِّنين على كلمات الرئيس «شريف»، الذي مال بدوره إلى الأمام قليلًا وهو يتطلع إلى عقارب ساعته قبل أن يدفع ذلك الكتاب الضخم أمامه قليلًا، ليتوسط تلك الطاولة تمامًا وهو يكمل كلماته:

- حَكَمتُ دولة «أرسينا» أكثر من ثلاثين سنة كاملة، لأدرك يقينًا أن هناك مشكلة واحدة تقف حائلًا بين بلادنا والتقدم، واليوم سيتم حلها، أعتقد أنني أستحق مكافأة لما قدمتُ لبلادي، ولأنكم جميعًا - بلا استثناء - تخدمون شعوبكم بإخلاص وتفانٍ، وددت أن أُشرككم في تلك المكافأة.

نطق عبارته وهو ينزع غلاف كتابه الضخم ليظهر ذلك التجويف الذي احتل وسط الصفحات؛ حيث رقدت تلك القنبلة الموقوتة التي تقافزت أرقامها الشيطانية لتقترب من الصفر، وقبل أن يفهم أحد الحاضرين ما يجري، اتسعت ابتسامة الرئيس «شريف» بشدة، ودوى الإنفجار.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾

سورة الجن آية ١١

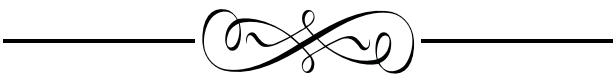

(١١)

الحارس

الأدخنة المتصاعدة من الوعاء الفخاري، المحشو بكرات مشتعلة من الفحم، تعبق المكان برائحة بخور قوية، وتلك اليد بعروقها البارزة لشيخ ناهز السبعين من العمر تضغط على رأس فتاة تم تقييدها بإحكام في محاولة مستميتة للسيطرة على الحالة العصبية التي انتابتها منذ قليل.

بدأ جسد الفتاة، التي لم تتجاوز العشرين من العمر، في التلوي، وأسنانها تصدر صريرًا خافتًا، وفكها السفلي يحتك بالعلوي، قبل أن يسيل لعابها ببطء من الجانب الأيسر لفمها، وعلامات الألم ترتسم بوضوح على قسمات وجهها، حتى أشفق عليها كلا الرجلين الجالسين قبالة الشيخ من ذلك المشهد، ليهمَّ أحدهما بأن يطلب من الشيخ ترك الفتاة لحال سبيلها، فما تعانيه من مس ذلك الجني أقل وطأة من معاناتها الآن.

جاء صوت الشيخ ليقطع الصمت المخيم ويده تنثر المزيد من مسحوق البخور والأخرى تمسح على رأس الفتاة، وصوته يواصل التلاوة:

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾....

تتصلَّب رقبة الفتاة ويخرج صوتها كالفحيح تلك المرة وهي تردد:

- اتركني الآن.. اتركني، أرجوك.

وكأن الشيخ لم يستمع لكلماتها وهو يكمل تلاوته وعلامات الألم تتحول إلى فزع يغزو قسمات الفتاة:

- ﴿نَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾.

تتلوَّى الفتاة بشدة هذه المرة، وقطرات العرق تغمر جبينها قبل أن تتحول إلى جداول تُغرق رقبتها وثيابها، والشيخ يتهيَّأ لختام تلاوته:

- ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

تصرخ الفتاة بصوت ارتجفت له أوصال الجالسين جميعًا، قبل أن يخرج صوت الشيخ وهو يتحدث في عمق موجهًا حديثه للفتاة:

- أخبِرنا مرة أخرى بما قلت منذ قليل.

بدأ صوت الفتاة يخرج متحشرجًا بنبرة خشنة تختلف تمامًا عن صوتها الحقيقي وهي تقول:

- أخبرتك من قبل أن تلك الفتاة ملعونة، هي ابنة أحد ملوكنا المطرودين من قبيلة الجان، حينما عشق إحدى الإنسيات لتثمر علاقتهما تلك الفتاة.

ازدادت عروق يد العجوز بروزًا وهو يضغط على رأس الفتاة، التي ازدادت آلام وجهها وضوحًا بشكل مخيف، قبل أن يأتي صوت الشيخ محذرًا:

- إياك أن تمارس تلك الألاعيب في وجودي، لم نعرف من قبلُ بثمرة علاقة بين جني وإنسية سوى ما تدَّعيه بلا دليل.

أغمضت الفتاة عينيها وقطرات الدموع تسيل على وجنتيها، وذلك

الصوت الأجش يخرج من بين شفتيها تارة أخرى:

- أنا لا أكذب، نحن الثلاثة حراس لجسد تلك الفتاة، أنت أجبرت الآخرين على المغادرة، لو غادرنا جميعًا سيعود ملكنا المطرود ليتحكم بجسدها، وهو ينوي الانتقام، ستكون لعنة حية وسط البشر، أرجوك لا تفعل.

ارتفعت يد الشيخ إلى الأعلى قبل أن تهوي على ظهر الفتاة بتلك العصا الخشبية، لتنطلق من فم الفتاة صرخة ألم بالصوت الخشن ذاته، وهي تحاول التملُّص من تلك القيود التي حول معصميها، من دون جدوى.

استمر الشيخ في قراءته وهو يمسح رأس الفتاة تارة، وتارة أخرى تهوي عصاه الخشبية على ظهرها، ليرتعد جسدها بقوة قبل أن يسكن تمامًا وهي تتنفس ببطء.

فك الشيخ وثاقها وهو يتنفس الصعداء بعد أن غادر الجني الأخير جسد الفتاة، التي عاد صوتها الطبيعي للخروج من بين شفتيها وهي تنظر حولها في ذهول متسائلة عمَّا حدث، ليأتي صوت الشيخ مخبرًا إياها بنجاتها من براثن ثلاثة من الجن سكنوا ذلك الجسد منذ زمن، لتشيح بوجهها بعيدًا وعيناها تلتمعان ببريق غريب لم يلحظه أحد الجالسين.

مال قارئ الموجز الإخباري إلى الأمام، وهو يقرأ ذلك الخبر الأخير في موجز منتصف الليل:

- عثرت الشرطة اليوم على جثتين ممزقتين لرجلين في أحد المنازل بالحي الشرقي، وتم القبض على صاحب المنزل، وهو شيخ في السبعين من العمر، وقد أخبر المحققين بأن أحد ملوك الجن الذي سكن جسد فتاة هو من قام بتمزيق الرجلين أمامه قبل أن تفر الفتاة هاربة.. وفي تصريح أولي لرجال المعمل الجنائي، رجَّح أحدهم أن يكون أحد الحيوانات المفترسة هو المسئول عن افتراس الرجلين مستبعدًا ضلوع الشيخ في الجريمة؛ فلا عمره ولا طاقته البدنية يؤهلانه لمثل ذلك الفعل، في حين أمرت جهات التحقيق بإحالة الشيخ إلى مستشفى الأمراض العقلية لتوقيع الكشف الطبي والنفسي عليه.

انتهى موجز أنباء منتصف الليل، نعود الآن بصحبتكم لاستكمال فيلم السهرة.

"تعلمت أن الشجاعة ليست غياب الخوف ،
ولكن القدرة على التغلب عليه."

نيلسون مانديلا

(١٢)

الكلمة الأولى

- نحن الآن على وشك الهبوط بأرض المطار، الرجاء من السادة الركاب ربط الأحزمة والبقاء بالمقاعد، شكرًا لكم.

تردد النداء بصوت أنثوي تبعته ترجمة بالإنجليزية بالصوت نفسه، قبل أن تبدأ الطائرة في الهبوط لأسفل رويدًا رويدًا وملامح الطرق والبيوت تتضح قليلًا، تلفَّت «مصطفى» حوله يطالع تلك التعبيرات التي ارتسمت على الوجوه قبل الهبوط مباشرة إلى أرض الوطن، واللهفة تفصح عن نفسها بوضوح في بريق عيون الرجال والنساء، سنوات كاملة قضاها أغلبهم بعيدًا عن أرض الوطن سعيًا لإيجاد فرص عمل لمستقبل أفضل، وكلما قرر أحدهم العودة للاستقرار تتخطفه العِبارات من الجميع بلا رحمة:

- تنزل تهبب إيه؟ هو حد لاقي ياكل؟ اللي نزل قبلك وعمل مشروع خسر اللي حيلته وفلّس وسافر تاني، احمد ربنا على إنك لاقي شغل في الغربة، مليون غيرك بيحسدوك على اللي انت فيه.

تذكر «مصطفى» تلك الكلمات وغيرها، التي صكت مسامعه أكثر من مرة حينما أسرَّ لمن حوله بنيَّة العودة للوطن، لم تخفَ نظراتهم وقتها، التي

اخترقت تلافيف عقله، وإن صمت بعضهم ولم يعقِّب، كان الجميع - بلا استثناء - ينظرون إليه كمجنون فقد عقله، أو ممسوس تتخبطه الشياطين فلا يدري إلى أين تودي به جريرة أفعاله، كيف يمكنه الاستقرار والاستثمار بمكان يئن من وطأة الفقر صباح مساء، وصنع الفقر مع البطالة شبحًا أسودَ تلبّس الجميع، فازدادت معدلات الجريمة والتحرش حتى صارت صحف العالم تتناقل أخبار الوطن بالكثير من السخرية والازدراء؟!

- الرابع عشر من مارس لعام ألفين وأحد عشر من الميلاد، درجة الحرارة بالخارج ست وعشرون درجة مئوية، بعد قليل تُفتح أبواب الطائرة للهبوط، الرجاء من الجميع المحافظة على الهدوء.. حمدًا لله على سلامتكم.

نطقتها تلك المضيفة بصوتها الناعم وهي تردف ترجمتها الإنجليزية كالمعتاد، وتلك الهواجس تجتاح عقل «مصطفى» مرة أخرى، لقد استمع جيدًا لكل الآراء الصادرة ممن حوله، لكن رغبته في العودة للوطن كانت جارفة، تملَّكته الحيرة ونهشت قلبه وعقله معًا، فلم يجد بُدًّا من إمساك العصا من المنتصف؛ لن يعود ولن يبقى، سيظل معلقًا بين حلمه ويقظته لأجل مسمى، حينما تساءل أصدقاؤه عن تلك الطريقة الجنونية التي يهذي بها كان رده قاطعًا: سيعود إلى الوطن لتأسيس عمله الخاص، وفي الوقت نفسه لن ينهي عمله بالخارج، سيظل مرتبطًا به للعودة إذا ما ساءت الأمور.

لاقت فكرته قبولًا من عقله واطمأن لها قلبه، ليشرع في تنفيذها فورًا، وما زاد من سعادته اشتعال ثورة في بلاده أطاحت بالحاكم بعد عقود في السلطة، ليوقن أن طريق العودة بات أكثر أمانًا من ذي قبل، تنفَّس الصُّعَداء وهو يهبط على سلم الطائرة وكأنما يود احتضان ما بلغه بصرُه بعينيه.. تلك

الأجواء الرائعة التي ميزت شهر مارس أنسته الثلوج التي تساقطت منذ أيام حيث مقر عمله، تطلع إلى ساعته التي أشارت إلى ساعات الصباح الأولى، ليرفع ياقة معطفه إلى الأعلى بحركة لا إرادية تعوَّد عليها منذ زمن.

ينتظره أحد أقاربه خارج المطار ليقلّه حيث يسكن، ابتسم وهو يتذكر كلمات ذلك القريب وهو يهاتفه أمس قائلًا:

- شوف يا عم «مصطفى»، تخلَّص أوراقك في المطار وتخرج هتلاقيني مستنيك من النجمة، اوعى تغلط وتركب تاكسي، لسه يا عمنا ثورة وانفلات أمني ممكن تلاقي نفسك نايم في الصحرا بعد ساعتين، ولو ابن حلال هيدفّعك الأجرة الطاق اتنين، اسمع كلامي وما تكلمش حد وانا هستناك بره.

يتقدم في الصف نحو شبَّاك الجوازات ليتلقَّف الضابط الجالس خلف الزجاج جواز سفره ملقيًا نحوه نظرة خاطفة قبل أن تهوي يده بختم الدخول فوق الصفحة الفارغة، ليعيد مناولته جواز سفره، مشيرًا إلى من خلفه بالاقتراب.

راقته تلك المعاملة التي سمع الكثير عنها منذ أيام، لم يعُد للواسطة ولا المحسوبية مكانٌ في وطنٍ ما بعد الثورة، أصبحنا خلال أسابيع دولة أوروبية المعاملة، الكل يبذل أقصى ما يستطيع للتدليل على انتمائه لذلك العهد الجديد، الابتسامات تعلو الوجوه للمرة الأولى منذ زمن.

تقدَّم نحو السير الكهربائي الدوَّار، الذي يحمل حقائب المسافرين ومن بينها حقيبته اليتيمة، وما كادت يده تمتد نحو حقيبته حتى سابقته يد أحد الواقفين لتحمل تلك الحقيبة واضعة إياها فوق عربة الحقائب ليدفعها

أمامه وصاحب اليد يحاول رسم ابتسامة واسعة على وجهه فشل تمامًا في رسمها لاعتياده التجهُّم بحكم عمله وهو يقول:

- حمد الله ع السلامة يا أستاذ «مصطفى».. اتفضل معايا.

ارتبك «مصطفى» قليلًا وهو يرى تلك التحية التي يتبادلها حامل الحقيبة مع رجال أمن المطار، ونهشت عقله الظنون وبدأت في غزو خلاياه الرمادية، كانت كتاباته ضد الرئيس تجد آلاف المتابعين على صفحات التواصل الاجتماعي، حتى إن صندوق رسائله كان مكتظًّا بالرسائل الخاصة، بعضها يثني على تلك الشجاعة والمنطقية اللتين يتحلى بهما، والبعض الآخر يسبه ويتهمه بالخيانة والعمالة للغرب لأنه يهاجم الرئيس القائد، بينما يشكك الطرف الثالث في انتمائه لجهة أمنية من أجل الإيقاع بالنشطاء.. لكن ذلك الرئيس رحل بلا عودة وإلى الأبد، أم تراه قد عاد خلال ساعات الرحلة إلى الحكم تارة أخرى؟!

يسير مسلوب الإرادة خلف حامل الحقيبة الذي يوزِّع تحياته المعتادة على العاملين بالمطار، والسؤال الأبرز يعود مرة أخرى ليحرق عقله تلك المرة.. لقد نجحت الثورة في إقصاء رأس الحكم، لكنها لم تنجح في القضاء على أذنابه حتى الآن، ترى.. هل قد أوقع أحدهم به؟ ربما كان اسمه على قائمة ترقُّب الوصول! نفض ذلك الخاطر بسرعة فلم يلمح رد فعل على وجه ذلك الضابط الذي قام بختم الجواز عند شباك الوصول.

حسنًا ليترك الأمر يمضي كما شاء الله، لن يحرق عقله وأعصابه أكثر من ذلك، ستفصح الأحداث، بعد قليل، عمَّا تخبئه الأقدار، لم ينبس ببنت شفة منذ أن غادر الطائرة، ارتسم شبح الابتسامة حينما جال الخاطر برأسه، هل

ستكون كلماته الأولى التي ينطقها في المعتقل؟ لا.. هو لم يرتكب أي جريمة يعاقب عليها القانون، كان يعبِّر عن رأيه في نظام حكم فاسد يستحق الرحيل والمحاكمة، وهو ما عبَّر عنه الملايين في طول البلاد وعرضها.

وصل الآن إلى باب المطار بعد أن تجاوز حامل الحقيبة رجال التفتيش بيسر، قبل أن يصافحه بحرارة وكأنه يعرفه منذ زمن ثم يتركه مع حقيبته ويعود للداخل.. ارتفعت درجة حرارة عقله وهو يبحث عن تفسير منطقي لما يحدث، ولم يطُل الأمر قبل أن يلمح من بعيد ذلك القريب الذي بادر بالتقدم نحوه بالسيارة وهو يهبط محتضنًا إياه بحرارة ويحمل الحقيبة ليضعها في الصندوق الخلفي بحرص وكأنه يخشى تحطم محتوياتها، ليفتح «مصطفى» الباب الجانبي ليلقي بنفسه على المقعد دون أن ينبس ببنت شفة.

صعد الرجل إلى مقعد القيادة ليتحرك بالسيارة بهدوء وهو يقول:

- إيه رأيك يا عم «مصطفى»؟ عديت انت بسرعة من المطار، لا تفتيش ولا جمارك ولا حد قالك هات جنيه، علشان تعرف إننا نعرف نخدم، أحسن من الجماعة الأجانب اللي انت بتشتغل معاهم، ولو عندك أي حد حبيبك جاي من بره كلمني وما تشيلش هم.

أطلت النظرات من عينيه ببلاهة تتساءل عن دور ذلك الوغد فيما حدث بالداخل، لقد كادت الدماء تتجمَّد في عروقه وهو يسير كالمنوَّم مغناطيسيًّا دون أن يفهم كُنهَ ما يدور حوله، ليلمح قريبه تلك النظرة البلهاء التي احتلت أركان وجهه بأكمله لينفجر ضاحكًا وهو يجلي ما كان خافيًا:

- أنا كلمت «حمادة» علشان يخلصك بسرعة، ده الراجل اللي خرج معاك

من جوه المطار، قلت له إنك قريبي ومليونير وجاي تستثمر هنا، «حمادة» ده أمين شرطة وشريكي في التاكسي، بس واد مجدع يخدمك بعينيه.

زفر «مصطفى» بقوة وعادت الدماء تسري في عروقه بشكل طبيعي، وخرجت عبارته الأولى من بين شفتيه منذ وطئ بقدميه أرض الوطن محملًا إياها كل ما كان يعتمل بداخله:

- يابن الكاااااالب.

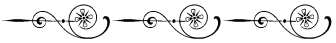

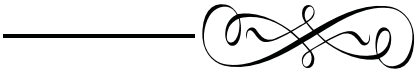

كفرتُ بالأقلامِ والدفاتِرْ
كفرتُ بالفُصحى التي تحبلُ وهيَ عاقِرْ
كَفَرتُ بالشِّعرِ الذي لا يُوقِفُ الظُّلمَ
ولا يُحرِّكُ الضمائرْ.

أحمد مطر

ديوان أحمد مطر

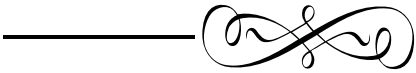

(١٣)

الرجل الكبير

طغت وسامة ملامحه على ما يرسله شَعره الأشيب من تقدير حقيقي لسنِّه التي تجاوزت الخمسين، وملابسه الفاخرة توحي بمركزه الاجتماعي وسط الأثرياء، وذلك اللقب الذي يعرفه به سكان الحي والذي اشتُهر به منذ زمن وهو يعمل في جهاز الأمن «الرجل الكبير».

يصفق بيديه وهو يومئ لعامل المقهى الراقي بوسط حي الزمالك، الذي أسرع بدوره لتلبية النداء، ليتلقى ما يطلبه ذلك الزبون المميز، قبل أن يغادر على الفور وابتسامة عريضة ترفع جانبي فمه إلى الأعلى وهو يفكِّر في مقدار تلك الإكرامية التي سيتلقاها بعد قليل.

يميل إلى الأمام قليلًا نحو محدثه وهو يلقي كلماته بصوت خفيض وكأنه يخشى أن تتسرب الحروف لمن حوله فتفصح عن تلك الأسرار للعامة:

- آه يا «خليل».. سنوات طويلة وأنا أعمل في المجال الأمني، لا أدري كيف تم إبعادنا إلى الخارج بهذا الأسلوب الحقير!

جاءه صوت «خليل»، الذي بدت على وجهه علامات الانكسار بفعل عوامل الزمن وإن لم يخبُ ذلك البريق من عينيه تمامًا وهو يرد في مجاملة واضحة:

- صدقت يا سيدي، تلك الثورة قامت بقلب الأشياء رأسًا على عقب..

هؤلاء العبيد أصبحوا السادة وامتلكوا زمام الأمور، وأنتم أيها السادة سحقتكم أحذية الغوغاء.

انتبه للخطأ البشع الذي ارتكبه بكلماته، من تلك النظرة الحارقة التي رمقه بها «الرجل الكبير» فشعر بأن جسده يتضاءل حتى كاد يتلاشى، وعيناه ترسلان رسائل الاعتذار ولسانه يرتجف داخل حلقه وقد جفت سوائل فمه عن ترطيب شفتيه، حتى بدا لون جلده أقرب لشحوب الموتى منه إلى الأحياء.

يدرك تمامًا أن «الرجل الكبير» فقد سلطاته بعد أن تم كشف جرائمه التي أزكمت رائحتها الأنوف، لكنه يدرك أيضًا أن الكثير من رجاله ما زالوا في أماكنهم، يعملون بأقصى طاقتهم لإعادة الأمور إلى نصابها؛ لذلك فقد بدا غضب «الرجل الكبير» في تلك اللحظة مخيفًا؛ فهو يعرف مقدار تلك القوة التي يمتلكها حتى إن كان خارج عمله.

جاء صوت «الرجل الكبير» ليضع حدًّا لتلك الذكريات التي اجتاحت عقل محدثه وهو يقول:

- انتبه جيدًا لكلماتك، لو نطقها غيرك لكان في عِداد المفقودين، لا تنسَ مع من تتحدث، لولا أنني أذكر خدماتك التي قدمتها طويلًا للجهاز الأمني لنسفتك نسفًا.

ازدرد «خليل» لعابه وبدت علامات الحياة تدب في أوصاله، وهو يستعيد ذكريات تلك الخدمات التي طالما قدَّمها لـ«الرجل الكبير».. لم يكن سوى عامل صغير بأحد الأحزاب، ولكن لكبر سنه وتلك الفترة التي قضاها في خدمة رئيس الحزب، كان مقربًا منه للغاية، ما سمح له بمعرفة مواعيد الاجتماعات،

والقيادات التي تعقد لقاءات مع رئيس الحزب من خارجه، حتى ذلك الاجتماع الذي سبق الثورة بأيام، دسَّ أجهزة التصنت داخل المكتب، وعلى الرغم من اكتشاف تلك الأجهزة وانتزاعها من أماكنها لم تتجه الشكوك نحوه إطلاقًا، بل تمت الإطاحة بالكثير من المنضمين حديثًا للحزب من هؤلاء الشباب الثوريين، وكافأه الرجل الكبير يومها بألفين من الجنيهات، وألحق ابنته «ليلى» بالعمل في شركته الكبرى.

قطع الرجل الكبير حبل أفكاره وهو يتناول قدحه من القهوة التي جلبها عامل المقهى منذ لحظات ليرتشف رشفته الأولى في استمتاع وهو يقول:

- قريبًا جدًّا سترسو سفينتنا التي تتقاذفها الأمواج بكل اتجاه، ظن الأغبياء أننا غرقنا، وما دروا أننا مهرة في القيادة.

نطقها وهو يرتشف آخر قطرة من فنجان قهوته وينهض من مكانه ملقيًا بعملة ورقية كبيرة على الطاولة، ليجبر «خليل» على النهوض قبل أن يكمل كوبه من الشاي، ثم يتبعه صاغرًا؛ حيث تقف تلك السيارة الفارهة بأرقام لوحاتها المميزة، يستوي الرجل الكبير أمام مقعد القيادة و«خليل» على المقعد المجاور قبل أن تنطلق السيارة في طريقها، دون أن يجرؤ الأخير على السؤال عن وجهتهما.

تمر دقائق معدودة قبل أن تصل السيارة إلى طريق جانبي شبه خالٍ من المارة ليقوم «الرجل الكبير» بإيقافها جانبًا وهو يحمل كيسًا بلاستيكيًّا شفافًا من المقعد الخلفي يحوي مسدسًا ضخمًا ليحمل الكيس بين يديه وابتسامته تتألق في جذل، قبل أن يناوله «خليل» في هدوء وهو يقول:

- تلك هي مهمتك يا بطل.

بدت علامات الحيرة وعدم الفهم على وجه «خليل» وارتعدت فرائصه وهو يتخيل «الرجل الكبير» يأمره بقتل رئيس الحزب، ليأتي صوته متهدجًا وهو يتساءل عن ماهية تلك المهمة، ليقرأ «الرجل الكبير» في ملامحه ذلك التساؤل قبل أن يأتي صوته قائلًا باحتقار:

- هل ظننت أنني سأعطيك أمرًا بقتل رئيس الحزب؟ يالك من غبي، أنت أتفه وأقل من أن تجرؤ على قتل شخص ما، ولن تكون تلك مهمتك بالتأكيد، فقط ضع ذلك المسدس كما هو بداخل سيارة رئيس الحزب حين مغادرته مكتبه غدًا مساءً كالمعتاد، بعدها مباشرة تجري اتصالك بي بأن المهمة قد تمت، ذلك المسدس استخدُم منذ أيام في قتل أحد رجال الأمن، واستطعنا بطرقنا الخاصة وضع بصمات رئيس الحزب على السلاح، بوجوده داخل سيارته لن يجد ملاذًا من خطتنا الجهنمية، لن نقتله بالتأكيد؛ فلسنا بحاجة لأن نصنع أبطالًا، لكن سنوات عمره الباقية ستكون رهينة بين أربعة جدران.

بدت ابتسامته أكثر شيطانية من أي وقت مضى، ما جعل قلب «خليل» يرتجف بشدة قبل أن يقفز كالملدوغ ورنين هاتفه يدق في جيبه ليتناوله بسرعة واسم زوجته يظهر على الشاشة، ليجري مكالمته وهو يكاد يطلق سبابه ويصب لعناته على رأسها لولا وجود «الرجل الكبير» بجواره، الذي تشاغل بدوره في مطالعة رسائله الإلكترونية على شاشة جهازه، ليصدر صوت «خليل» من بين شفتيه متسائلًا عن اتصال زوجته في هذا الوقت، قبل أن يخفق قلبه في عنف وهو يستمع لكلماتها:

- «خليل»! النجدة، ابنتنا «ليلى» وصلت إلى المستشفى في حالة خطرة.

حاولتُ الاتصال بك منذ ساعة، لكن هاتفك كان خارج نطاق التغطية، فاتصلت برئيس الحزب الذي لم يتأخر لحظة وهو معي الآن، أخبرتنا «ليلى» بأن ابن «الرجل الكبير» هو من ألقاها من شرفة الطابق الرابع لأنها قاومت اعتداءه عليها، بعدها تشنج جسمها ولفظت أنفاسها، لقد رحلت ابنتنا الوحيدة يا «خليل».. ماتت «ليلى».

تجمَّدت ملامح «خليل» وبركان الألم يصهر قلبه بلا رحمة، سُحقت زهرته الوحيدة بلا رحمة، ولن يُحاكَم ذلك الوغد؛ لأن والده هو «الرجل الكبير» صاحب السلطات الكبيرة على الرغم من خروجه من عمله.

ودون أن يدري، وجد نفسه كالمنوم مغناطيسيًّا ويده تمتد داخل الكيس البلاستيكي يحمل ذلك المسدس الضخم يوجهه نحو رأس «الرجل الكبير» الذي أطلق سبابًا متصلًا وهو ينعت «خليل» بالغبي الذي أفسد البصمات، لتشتعل عينا «خليل» بغضب عارم لم يألفه من قبلُ، وهو يضغط الزناد بقوة، ورأس «الرجل الكبير» يتفجر كنافورة من الدماء والرصاص يخترقه بلا رحمة.

ترجَّل «خليل» من السيارة وهو يسير محطم القلب بخطوات بطيئة، قبل أن يقوم بدفن ذلك السلاح بعد أن اطمأن لخلو الطريق وابتعاده بدرجة كافية، وفي عقله بدأت ترتسم الصورة الكاملة، وهو يحدث نفسه في همس:

- رحلت «ليلى» وكان يجب أن ترحل، طفلتي الوحيدة التي أصبحت شابة تضج بالحيوية، آه لو علمت بخيانة والدها لرب عمله، ذلك الرجل الواقف بجواره وأسرته منذ زمن، الذي كان حاضرًا في محاولة إنقاذ ابنته، كيف سينظر في عيني الرجل بعد الآن؟ وذلك الوغد الذي يتمتع بحماية والده، هل ترى جريمته المنكرة بحق ابنته تمر مرور الكرام؟ لن يحدث ذلك وإن كانت

حياته هي الثمن. لقد تخلَّص من «الرجل الكبير»، أولاً، أما ابنه فلا يجب أن يموت الآن، سيجعله يتذوق الألم طويلًا، قبل أن تأتي نهايته بما يليق بجرائمه، ذلك يشفي غليله.

انفرجت أساريره عند ذلك الحد بابتسامة مريرة وهو يتوجه نحو المستشفى لوداع ابنته قبل أن يشرع في تنفيذ خطته.

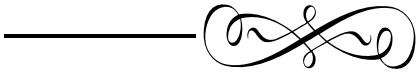

" كم من الجرائم تُرتكب باسم الوطن
لا فرق بين القتل بالكلمة والقتل بالرصاص"

جمال عبد الرحيم

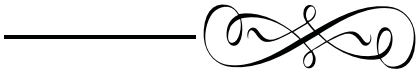

(١٤)

البريء

صوت منبه ساعة اليد يصدر أزيزه الخافت، لأنتبه من غفوتي مطالعًا الشاشة الصغيرة بألوانها المضيئة التي أعلنت الثانية بعد منتصف الليل، سيارة الأجرة تنهب الطريق الصحراوي بعد خروجنا من القاهرة باتجاه السويس حيث أعمل، وذلك الشاب في المقعد الأوسط يداعب شاشة هاتفه المحمول بأصابعه ليأتي صوت أحد مقدمي البرامج يحمل أطنانًا من السخرية والشماتة والحقد وهو يصرخ:

- حقوق الإنسان! لا أريد سماع تلك الكلمة مطلقًا، من ينادي بها خائن ويجب أن يسجن، من يطالب بحقوق الإنسان عميل للإرهابيين يجب أن يتم الإبلاغ عنه فورًا، لو خرج أحدهم في مظاهرة لتخريب البلاد يجب قتله، ويجب ألا يُحاكَم من قتله؛ لأنه إرهابي مخرب.

على الضوء الخافت المنبعث من مصباح السيارة الداخلي، ألمح الامتعاض على وجوه الجميع بلا استثناء، والهمهمات تصدر بلا صوت واضح، قبل أن يبدأ السائق في الانحراف قليلًا إلى جانب الطريق والسرعة تقل رويدًا

رويدًا حتى توقف تمامًا.

الصحراء السوداء في عتمة الليل تحتل المشهد بأكمله، وذلك الشاب القابع بجوار الباب يترجل من السيارة وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو يطالع وجوه الجميع دون أن ينبس ببنت شفة ليسير نحو ثكنته العسكرية في قلب الصحراء، قبل أن تغيّبه الرمال والظلام، ليقفز بغتة إلى عقلي ذلك التساؤل بلا مقدمات: أتراه يصل أم يكون صيدًا سهلًا لإرهابي يترصد به؟!

كطير ذبيح يرتعد قلبي لتلك الفكرة، قبل أن أحاول تنحيتها جانبًا، وتلك الدموع التي ترقرقت منذ قليل بعيني الجندي الشاب تحتل ذاكرتي بأكملها، ترى ما سرها؟ أهي رسالة اعتذار عن خطأ لم يرتكبه، أم رأى في أحدنا شبيهًا لمن تركهم خلفه؟

بشرته التي اتخذت من القمح لونها الطاغي جعلتني أسير الحيرة في البحث عن تلك البقعة التي جاء منها، لم ينطق بكلمة لأستبين من لهجته منشأه، ربما كان من قلب الوادي يحمل الفأس ليشق قلب الأرض نهارًا، لتبعث من أحشائها الخير، وربما كان من الدلتا لتخوض قدماه وسط المياه وهو يزرع شتلات الأرز، نحافته تليق بلاعب كرة ماهر في شوارع القاهرة القديمة.

تحركت السيارة قليلًا قبل أن يدوي صوت طلقات نارية شقت سكون الليل انتزعتني والجميع من شرودنا بلا رحمة لتنزف القلوب ألمًا.

ضغط السائق دواسة الوقود ليسرع أكثر، في حين لم يجرؤ أحدنا على الاعتراض، يعلو نحيب تلك العجوز في المقعد الخلفي ليدمي القلوب وصوتها المرتجف ينطق بعبارة واحدة:

- يا رب.

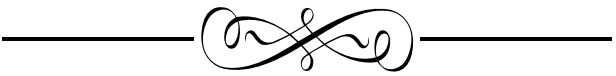

" ليس هناك أخطر من شخص
لا شيء لديه ليخسره "

جمال عبد الرحيم

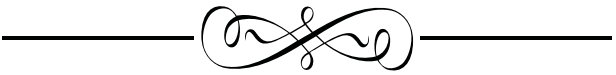

(١٥)

الذئب

اليتيم، هكذا كان يطلق عليه، نسي أو تناسى ذلك الاسم المدوّن في شهادة ميلاده، منذ أكثر من ثلاث عقود مضت، نشأ يتيماً كما يعرفه كبار أهل القرية، ذلك الحادث الذي أودى بحياة والديه كان حديث التجمعات في قريته البائسة لسنوات، رحل والده "الطيب" على الفور بينما عانت الأم من غيبوبة لأسابيع قبل أن تلحق بزوجها، انتزعا وقتها دموع الجميع، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، فلم يعرف أهالي تلك القرية الملقاة على أطراف الوادي جنوباً قيمة الدموع يوماً، حوادث الثأر المتكررة هي الطريق الأقرب للموت، بينما مصرع الرجل "الطيب" وزوجته ، وذلك اليتيم القابع بمنزل الأعمام كان شيئاً لم يعتده القرويون من قبل.

أخلاق الأب الطيبة وأعمال البر التي تفرد بها بين قومه كانت تثير الدهشة، لم تمطر رياح عائلته غيثاً، بل عرفت بين العائلات بالقسوة، وقانون القوة الحاكم بين الجميع كعادة تلك البلاد، رحل الأب والأم ليتركا "اليتيم" تتخطّفه أيدي الطامعين تخطّف الحدأة لفرخ ضعيف انكسر جناحاه قبل أن يحسن السير، لم يرث من والده سمعة تلك الأخلاق الفاضلة بين الناس، وإن كان يتمتع بها بشهادة من تعامل معه عن قرب، وهم قليلون، ربما يعدون على أصابع اليد الواحدة.

تكشّفت نوايا الأعمام فور رحيل الأب، بينما كانت الأم تعاني من غيبوبتها قبل أن يحين أجلها هي الأخرى، فضاعت تلك الدار التي تتوسط بيوت الأهل ومعها تلك القطعة من الأراضي الزراعية التي ورثهما عن والده، لم يدر وقتها كيف تم الأمر، ولم يفقه ما يدور حوله، وإن كانت الخطط الشيطانية تحاك أمام سمعه وبصره، ظهرت وثائق مزوّرة تثبت بيع الأب لكل ممتلكاته من أراض سكنية أو زراعية لأشقائه، بتاريخ سابق لوفاته، وقتها لم يستطع "اليتيم" الاعتراض، لم يكن يدرك معنى الاعتراض، ولم يهتم أحد سكان القرية بالدفاع عن حقه المسلوب، رغم علم الجميع بمدى الظلم الفادح الذي تعرّض له، من يجرؤ على مواجهة عائلة كعائلته، امتلكت من القوة والبطش ما يرهب قلوب الآخرين، ومن يخوض غمار معركة لا ناقة له فيها ولا جمل.

استسلم وقتها لقدره المحتوم، لم يهتم أحدهم بإلحاقه بالدراسة، ليبدأ العمل كأقرانه في أراضي العائلة الزراعية، ليكون جزاؤه الحصول في المقابل على ما يكفي بالكاد ليسد رمقه مع الكثير من اللكمات والركلات وكلمات التوبيخ، بدأت معاناته من سوء المعاملة في نفس اللحظة التي بدأ يدرك فيها كنه ما حوله، روحه المتمردة لم تستطب البقاء وسط نهر الذل، فرحل بعيداً تاركاً تلك العائلة غير مأسوف عليها، عاش متسولا لسنوات، حتى عافت نفسه ذلك العمل مدفوعاً بالإهانات اليومية التي يتعرض لها.

لم يكد يشب على الطوق حتى اختار طريقه الأمثل، أصبح بلطجياً في عرف القانون، يدافع بيده عن حقه وعن حق كل من يتعرض لظلم، بمقابل أحيانا ليسد رمقه، وبلا مقابل في كثير من الأحيان، أصبحت القضايا تلاحقه من كل حدب وصوب بلا رحمة، ما ارتكب منها وما لم يرتكب، ليصبح كبش

الفداء للعديد من الجرائم التي بقيت معلقة بلا حل في ملفات الشرطة.

زيارة خاطفة في جنح الظلام لقريته القديمة، يعود منها وقد أزهق روح من أكل حقه منذ سنوات، طريقته البشعة في تنفيذ انتقامه جعلت القرية ترتجف فزعاً، من تراه يجرؤ على النيل من أحد الطغاة بتلك الطريقة؟ ذاع صيته بسرعة ليتحلّق حوله العديد من الأشقياء والذين كان يبعدهم عنه فوراً، ولا يستبق معه سوى من عجز عن الحصول على حقه منفرداً، ليصبح اسمه سبباً في تلك الرجفة التي تصيب كل من أكل حقاً ليتيم أو ضعيف، حتى رجال الشرطة أصبح اسمه يربكهم ويصيبهم بالتوتر، بل أصبح البعض منهم يمحو اسمه من بعض القضايا خشية انتقامه، ليس هناك أخطر من شخص لا شيء لديه ليخسره.

اليتيم كان لقبه، والذئب.. هكذا أصبح، تسير أيامه برتابة حتى ذلك اليوم الذي لمح فيه خصلات شعرها المتطايرة، وهي تزيحها جانباً لتكشف عن وجه بصفاء البلور النقي، تزينه عينان سوداوان كجزيرتين وسط نهر من الحليب الصافي، تتسمر نظراته للحظات على وجهها الملائكي، قبل أن يرتعد كعصفور أصابه البلل، لم يرتجف قلبه يومها خوفاً فلم يعتد الخوف، ولكنه ارتجف في تلك اللحظة عشقاً.

أصبح ملاكها الحارس دون أن تدري، تلك الفتاة التي عرف فيما بعد أنها يتيمة مثله وتعمل كخادمة مقابل المأوى في بيت أقاربها، رغم ما كان يمتلكه والدها الراحل من أموال يعرفها القاصي والداني، ولكن أقاربها بما لهم من نفوذ وسطوة لم يتركوا لها من ذلك كله شيئا، هي إذن النسخة الأنثوية من مأساته القديمة، ولكنها لم تتخذ خياره المُر في المواجهة، استكانت واستسلمت

لقدرها، متسربلة برداء الذل، قانعة بالمهانة، سألها بحدة: لم البقاء وسط بئر العفن؟ ليأتي ردها بنظرة منكسرة: لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، ولم تكن تعلم أن ذلك الأمر أقرب إليها من حبل الوريد.

تصدى بما له من قوة وبطش لهؤلاء السارقين لمالها، أجبرهم على إعادة ما اغتصب منها من مال وعقارات كاملاً، عشقته بجنون ربما أكثر من عشقه لها، أخبرها ودموعه تترقرق في مآقيه للمرة الأولى منذ زمن بأن طريقهما لا يلتقيان، تقاطعا مرة لتتم دورة القدر، لا يمكنهما السير في نفس الطريق معاً، لتأتي كلماته كطعنات خنجر مسموم، ألقتها طريحة الفراش لأيام، وهي ترى بعين بصيرتها ما هو مقدم عليه.

أطمئن بأن عودها قد اشتد بما تملك، بعدما استعادت حقها المسلوب، فاستسلم لقدره، تلك المطاردة الأخيرة أطبقت عليه من كل الجهات، من أراد الخلاص منه تطبيقاً للقانون ومن أراد الخلاص منه للانقضاض على القانون.

الدماء تغرق قميصه بعد أن اخترقت تلك الرصاصات صدره، ظل يقاتل حتى الرمق الأخير، لم يفكر لحظة في الفرار، وحينما سقط على الأرض لافظاً أنفاسه متطلعاً نحو السماء في تلك الليلة، اتسعت ابتسامته الملطخة بالدماء وهو يرى وجهها الملائكي المبتسم منقوشاً على القمر، تماماً كما رآها في المرة الأولى، وتألقت عيناه بشدة قبل أن يخبو منها بريق الحياة.

تمت بحمد الله ،،

المحتويات

القصة	الصفحة
الإهداء	٣
الصمت	٦
نعمة	١٢
اغتيال عشق	١٦
انفصال	٢٢
السادة والعبيد	٣٠
المترجم	٣٤
بنت الوكيل	٣٨
المعتقل	٤٤
سهام القدر	٤٨
الجنرال الأخير	٥٤
الحارس	٦٠
الكلمة الأولى	٦٦
الرجل الكبير	٧٤
البريء	٨٢
الذئب	٨٦

الكاتب في سطور

- جمال عبد الرحيم نطر.
- مصري الجنسية.
- خريج المعهد القومي للاتصالات ٢٠٠٠م.
- يعمل في مجال الاتصالات والحاسب الآلي.
- كاتب قصصي وروائي وشاعر عامية.
- مؤسس دار نشر المكتبة العربية للنشر والتوزيع.

الإصدارات المشتركة
(كتب جماعية)

- بداية - ليان للنشر والتوزيع.
- انعكاس - ليان للنشر والتوزيع.
- قطرات مطر - شهرزاد للنشر والتوزيع.
- مطر طالع لفوق - بنت الزيات للنشر والتوزيع.
- صلوات الألم - فريق القلم الحر- شهرزاد للنشر والتوزيع.
- وجوه آيلة للسقوط - شهرزاد للنشر والتوزيع.
- تنهيدة قلم – بنت الزيات للنشر والتوزيع.

الإصدارات الخاصة

- أرض العشق والموت -مجموعة قصصية- شهرزاد للنشر والتوزيع.
- موستار – رواية – دار غراب للنشر والتوزيع.
- مدينة الجحيم – رواية – شهرزاد للنشر والتوزيع.

قيد النشر

- الجنرال الأخير – مجموعة قصصية.
- الملائكة السوداء – رواية.

قيد الكتابة

📖 ديستوبيا – رواية

📖 ليلة في إسطنبول - رواية

صفحة الفيسبوك:

facebook.com/gamal.alislam

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017